REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المجلة التَّاريخيَّة المصْريَّة

مجلةٌ عِلْمِيَّة مُحَكَّمَة تُصْدِرُها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع	رقم الإيداع بدار الكتب
2401-1687	99/9440
الترقيم الألكتروني	الترقيم الدولي
3354-2735	977-5366-11-9

موقع المجلة على بنك المعرفة https://jejh.journals.ekb.eg/

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨
Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلة التاريخية المصرية

REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

تُصْدرهُا

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات ـ الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

المجلد الرابع والخمسون

القاهرة

٢٠٢٠م

هَيْئَة التَّحْرِير

أ.د. أيمن فؤاد سيد ـ رئيس التحرير
أ.د. أحمد زكريَّا الشَّلْق
أ.د. أحمد الشِّرْبِيني السَّيِّد
أ.د. جمال مُعَوَّض شَقْرَة
أ.د. خَلَف عبد العظيم الميري
د. محمَّد فوزي رَحِيل ـ سكرتير التحرير

الهَيْئَة الاسْتِشَارِيَّة الدَّوْلِيَّة للمَجَلَّة

أ. د. إبراهيم القَادِري بوتْشِيش (المَغْرِب)
أ. د. أحمد رَجَب محمد علي (مصر)
أ. د. إسْحَاق تاوَضْرُوس عِبِيد (مصر)
أ.د. أشْرَف محمَّد مُؤْنِس (مصر)
أ. د. تُرْكِي بن فَهْد آل سَعُود (السَّعُودِيَّة)
أ. د. جولييت رَسِّي (لُبْنَان)
أ. د. حسين سيِّد عبد الله مُراد (مصر)
أ. د. السَّيِّد فِلِيفِل (مصر)
أ. د. عاصِم أحمَّد الدِّسُوقي (مصر)
أ. د. عبد الكَرِيم مَدُون (المَغْرِب)
أ. د. عبد الله بن محمَّد المُنِيف (السَّعُودِيَّة)
أ. د. عَفَاف سَيِّد صَبْرَة (مصر)
أ. د. عَلَاء الدِّين عبد المُحْسِن شَاهِين (مصر)
أ. د. محمَّد م. الأُرْنَاؤوط (كوسوفو)
أ. د. محمَّد صَابِر عَرَب (مصر)
أ. د. محمَّد السَّيِّد عبد الغَنِي (مصر)
أ. د. محمَّد عِيسَى الحَرِيرِي (مصر)
أ. د. محمُود إسْماعِيل عبد الرَّازِق (مصر)
أ. د. مُنِيرَة شَابُوتُو رِمَادِي (تُونِس)
Prof. Dr. Sylvie DENOIX (France)
Prof. Dr. Albrecht FUESS (Germany)
Prof. Dr. Nicolas MICHEL (France)
Prof. Dr. Tetsuya OHTOSHI (Japan)
Prof. Dr. Michel TUCHSCHERER (France)

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد أشرف عبد المقصود

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

المحتـويات

الصفحة

التواد الاجتماعي في مصر الرومانية في ضوء الوثائق البردية
نادر فتحي محمد ٧-٣٢

التطورات الاجتماعية وأثرها في ازدهار منطقة عسير خلال الفترة من (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/١٩٨٢ - ٢٠٠٥م)
سعيد بن سعد بن خاطر القحطاني ٣٣-٦٢

نشأة جامعة كمبريدج فى العصور الوسطى
طارق شمس الدين زاكر أبو المجد ٦٣-٩٦

من سراييفو إلى القدس عبر زيمون: الحاخام يهودا القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨)
رمز الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية
محمد م. الأرناؤوط ٩٧-١٢١

إسهامات إبراهيم فوزي باشا فى تدوين تاريخ مصر فى منابع النيل فى النصف الثانى من القرن ١٩
أحمد عبد الدايم محمد حسين ١٢٣-١٦٥

ثورة ١٩١٩م وأثرها على الحركة الوطنية الجزائرية
أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس ١٦٧-١٨٧

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي
ماجد الحسيني الحارثي ١٨٩-٢٢١

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ١٢٣ــ١٦٥

إسهامات إبراهيم فوزي باشا فى تدوين تاريخ مصر فى منابع النيل فى النصف الثانى من القرن ١٩

أحمد عبد الدايم محمد حسين[١]

ملخص

شكلت كتابات اللواء إبراهيم فوزى باشا فتحًا جديدًا فى مجال الكتابة عن الإمبراطورية المصرية فى افريقيا. حيث أرخ لمصر فى كتابه «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، حضورًا طاغيااً فى منابع النيل الاستوائية. فشكلت كتاباته تراكمًا معرفيًا مهمًا، ساعد مؤرخينا فى فك شفرات الوثائق التى أنتجتها السلطات المصرية التى حكمت تلك المناطق. وفى هذا السياق تم تقسيم الورقة إلى خمسة محاور رئيسية: الأول – التعريف بإبراهيم فوزى وظروف إصدار كتابه. الثاني، منهج الكتاب ومصادره وأسلوبه. الثالث – إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى أوغندا والمنابع الاستوائية. الرابع، إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى السودان. الخامس، قضايا النيل من منظور إبراهيم فوزى. وأوضحت الدراسة فى ختامها بأن إبراهيم فوزى قدم اسهامات مهمة فى مجال الكتابة التاريخية ونمطا جديدا من أنماط كتابتها، ورصدت تاريخًا إمبراطوريا فى حوض النيل. فبين لنا بأن الهوية الوطنية المصرية لم تتشكل على أيدى الحكام ورؤساء الحكومات والقادة، بل تشكلت على

---

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة.

أيدى هؤلاء الفاعلين الحقيقيين من المصريين من الجنود والتجار والمدرسين والرجال والنساء والعمال وغيرهم، ممن صنعوا بعرقهم وكفاحهم تاريخ مصر الحقيقى.

Abstract

The writings of Major General Ibrahim Fawzi Pasha formed a new field in the process of writing about the Egyptian Empire in Africa. Where he chronicled for Egypt in his book "Sudan Between Hands of Gordon and Kitchener", a great presence in the headwaters of the tropical Nile. His Writings constituted an important Accumulation of knowledge, which helped our historians decipher the documents produced by the Egyptian Authorities who ruled those Areas. In this context, The Paper was divided into five main Axes: First Axis - The Definition of Ibrahim Fawzi and the Circumstances of the Publication of His Book. Second Axis, The Book's methodology, Sources and it's Style. Third Axis - Ibrahim Fawzi's Contributions in recording History of Egypt in Uganda and Tropical Sources. Fourth Axis, Ibrahim Fawzy's contributions in recording history of Egypt in Sudan. Fifth Axis, Issues of the Nile in Perspective of Ibrahim Fawzi. In its conclusion, the study indicated that Ibrahim Fawzi made an important contributions in the field of Historical Writing and a new type of writing style, and monitored Empire History in the Nile Basin. He showed us that the Egyptian National Identity was not formed by rulers, heads of Government and Leaders, but rather was formed by these true Egyptian Representative, Soldiers, Merchants, Teachers, Men, Women, Workers, and Others, Who made with their race and struggle the true history of Egypt.

*
* *

مرت الكتابة التاريخية فى مصر بمراحل مختلفة، لكل منها خصائصها وسماتها وموضوعاتها. وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، شكلت كتابات اللواء إبراهيم فوزى باشا فتحًا جديدًا فى مجال الكتابة عن الإمبراطورية المصرية فى افريقيا. فبحكم عمله كقائد عسكرى مبرز فى حملات التوسع المصرى فى افريقيا، أرخ لمصر فى كتابه «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، حضورًا طاغيًا فى منابع النيل، وقدم لنا حقلًا معرفيًا جديدًا لم يستطع أن يجاريه أحد من أقرأنه فى تسجيل مفرداته. فشكلت كتاباته حول تاريخ مصر الامبراطورى فى منابع النيل تراكمًا معرفيًا مهمًا، ساعد مؤرخينا المحدثين فى فك شفرات الوثائق التى أنتجتها السلطات المصرية التى حكمت تلك المناطق. ومع أن اللواء إبراهيم فوزى باشا لم يكن من الصنف الذى انشغل بالحديث عن نفسه، وعن دوره فى فتوحات تلك المناطق، إلا أنه لم يقدم لنا تاريخًا بطوليًا لسيرة الحكام المصريين فى حوض النيل أيضًا. حيث اهتم برصد تاريخ الجنود والعساكر المصريين وهم يفتحون الأقاليم، ويحققون الأمن والاستقرار فى تلك المناطق. وهو بحق أول من رصد لنا مفهوم قوة الدولة المصرية واستراتيجيتها فى افريقيا. فقد عرفنا من خلاله أقصى نقطة وصلت لها الفتوحات المصرية فى منابع النيل الاستوائية، وعرفنا من خلاله تاريخنا المشرف عبر هذا الحوض. وأخبرنا عن مصريين تاجروا وأفلحوا فى تجارتهم، وعن مصريين آخرين أخفقوا وضاقت بهم السبل. عرفنا من خلاله مصريين قدموا عمرانًا وحضارة لأبناء الوادى، وعرفنا أيضًا منغصات اعترضت طريقهم، ومؤامرات حيكت لإبعادهم. ولهذا فان كتابه الذى أنجزه فى نهاية القرن ١٩ يعد من أهم ما كتب فى تاريخ التوسعات المصرية فى منابع النيل بصفة عامة، وتاريخ مصر فى السودان بصفة خاصة. فقد حدثنا فى جزءه الأول عن تاريخ مصر فى المديرية الاستوائية وأوغندا، ورصد لنا تأثير الثورة المهدية فى السودان، واثر الانجليز فى الوقيعة بين المصريين والسودانيين وخروج مصر من السودان فى يناير

١٨٨٥. وراح فى جزءه الثانى يتحدث عن المآسي التى حدثت للمصريين بعد دخول قوات المهدى للخرطوم، وعن سوء دولة المهدية وقرب نهايتها.

ورغم أن كتاب إبراهيم فوزى، بجزأيه، يعد من الكتب المهمة فى تدوين تاريخ مصر الامبراطورى فى القرن ١٩، إلا أن صاحبه يعد أيضًا من مؤرخي مصر المهمين فى تاريخ التدوين التاريخى. ولأهمية الكتاب، تعرض صاحبه فى أحيان كثيرة لحملات تشوية مدبرة، حاولت الانتقاص من قدره، ووجهت له شتى أنواع التهم. والسؤال الذى يطرح نفسه للنقاش: ما هى قيمة كتابات فوزى فى تسجيل الحضور المصرى فى منابع النيل؟ وما هى المعطيات التاريخية التى اهتم بها المؤلف فى رصد الارتباط بين تاريخ مصر وتلك المنابع فى النصف الثاني من القرن ١٩؟ وكيف تناول أسباب التوسع المصرى فى تلك المناطق؟ وكيف عرض إخفاقاته ونتائجه؟ ,وهل النص يمثل إشكالية معقدة أنتجتها السلطة السياسية المصرية؟ أم أن الظرف التاريخى هو السبب الحقيقى فى إيجاده؟ وفى هذا الإطار يمكن تقسيم الورقة إلى خمسة محاور رئيسية:

المحور الأول: التعريف بإبراهيم فوزى وظروف إصدار كتابه.

المحور الثاني: منهج الكتاب ومصادره وأسلوبه.

المحور الثالث: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى أوغندا والمنابع الاستوائية.

المحور الرابع: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى السودان.

المحور الخامس: قضايا النيل من منظور إبراهيم فوزى.

المحور الأول: التعريف بإبراهيم فوزي وظروف إصدار كتابه

من المؤكد أن الإمبراطورية المترامية الأطراف، والتى كونتها الإدارة المصرية فى افريقيا، والتي سكنتها قبائل متعددة اللغات واللهجات والتقاليد، قد شارك اللواء إبراهيم فوزى فى تكوين جزء منها. فباعتباره احد هؤلاء القادة المصريين الذين

شاركوا فى توسيع الامبراطورية المصرية حتى بحيرتى فيكتوريا وألبرت، يعد أحد هؤلاء القادة العظام الذين وطدوا لنفوذ الدولة المصرية فى حوض النيل، وشاركوا فى صناعة الاستقرار والامن فى منابعه الاستوائية. فمن يا ترى هو ابراهيم فوزى؟ وما الظروف التى جعلته يؤلف كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر؟ وفى إطار الإجابة يمكننا تقسيم هذا المحور الى قسمين:

القسم الأول، التعريف بإبراهيم فوزى ودوره.

فقد ولد إبراهيم فوزى بالقاهرة سنة ١٨٤٨، ودخل المدرسة الحربية فى عهد الخديوي إسماعيل، وبعد تخرجه منها برتبة أسبران، التحق بحكمدارية السودان فى فترة حكم إسماعيل باشا أيوب[١]. فسار مع غردون إلى خط الاستواء فى ٢١ فبراير ١٨٧٤[٢]. غير أن خدمته مع غردون هناك جعلته يترقى فى مناصبه إلى رتبة اليوزباشى(نقيب)، ثم صاعقول أغاسى(رائد) سنة ١٨٧٥، فتم تعيينه مأمور أورطة. بعدها عُين مديرا لبورو الغربية، وهى اخطر مديريات خط الاستواء، فعمل ثلاثة أشهر هناك. وظل بها حتى عاد مع غردون للقاهرة، فقابلا الخديو إسماعيل سويًا، وبتوصية من غردون أنعم عليه برتبة قائمقام سنة ١٨٧٧. وظل عشرة أيام، غادر بعدها غردون إلى انجلترا، فأقام مؤلفنا فى مصر مدة شهرين حتى صدر له أمرًا بالتوجه لخط الاستواء باعتباره وكيل حكمداريه. ولما بلغ بربر علم بأن غردون أصبح حكمدارًا لعموم السودان وسواحل البحر الأحمر، وعلى اثر ذلك تم تعينه هو باش معاون لحكمدارية عموم السودان، وهى الوظيفة التالية لوظيفة وكيل حكمدار عموم السودان. وظل فيها إلى أن تم تعيينه مديرًا لمديريات بحر الغزال بعد ضمها لأملاك

---

(١) عبدالله حسين: السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة العلمية، الجزء الاول، القاهرة – مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة ٢٠١٣، ٢٤٩.

(٢) نعوم شقير: تاريخ السودان، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، بيروت – دار جيل ١٩٨١، ٢٥٤.

الحكومة المصرية[١]. ورقى لرتبة البكباشى بتاريخ ٩ مايو ١٨٧٧ وأصبح على الرتبة الرابعة[٢]. وصدر فى ١٤ مايو ١٨٧٧ أمرًا بتعيينه مديرًا لبحر الغزال، مع الإحسان عليه برتبة البكباشى[٣]. ثم اشرف على سليمان بن الزبير حين عين وكيلًا لاقليمى بحر الغزال ورول فى ٥ أكتوبر ١٨٧٧، لإصلاح الجهات وملاحظة إداراته والإشراف عليها[٤]. ومكث بها إلى أن تم تعيينه من قبل الخديوي إسماعيل، مديرًا على عموم خط الاستواء ورول[٥]، نظرًا لما يملكه من الدراية والهمة، وبخلاف معرفته بأحوال تلك الجهات. وفى هذا الإطار تمت ترقيته من رتبة القائمقام إلى الميرلاى لزيادة اجتهاده، ولعدم وجود من يليق بخلافة مديرها السابق بروت بك، الذى كان مريضًا[٦]. وحين تسلم أمين باشا حكم المديرية الاستوائية من إبراهيم فوزى، كانت تمتد من شمال بحيرة ألبرت إلى اللادو بجوار بحر الجبل بواقع ٢٠٠ ميل، وتضم أيضًا بلاد الأونيورو والشولى والمادى والمارى واللاتوكا والماكراكا والمورو، ومن شمال بحيرة فيكتوريا بخمسين ميلا وحتى بحيرة إبراهيم كيوجا[٧].

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- السودان بين يدى غردون وكتشنر، الجزء الأول، القاهرة - دار الكتب والوثائق المصرية ٢٠٠٨، ٢٨، ٢٩.

(٢) الوثيقة ٧٢: خاص بترقية ابراهيم وزى فى ٩ ماو ١٨٧٧، جميل عبيد: المديرية الاستوائية، القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، المكتبة العربية، وزارة الثقافة ١٩٦٧، ٣٩٢.

(٣) الوثيقة ٣٧: امر بترقية إدريس ابتر والنور عنقرة وابراهيم فوزى مع تعيينه مديرا على بحر الغزال، جميل عبيد: المرجع السابق، ٣٧١.

(٤) الوثيقة ٧٧: مصر توافق على تعيين سليمان بن الزبير تحت إشراف ابراهيم افندى فوزى فى ٥ اكتوبر ١٨٧٧، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٩٥.

(٥) الوثيقة ٧٨: تلغراف من إلى سعادة حكمدار الاقاليم الاسوائية فى ٢٨ يناير ١٨٧٨، جميل عبيد: المرجع السابق، ٣٩٥.

(٦) الوثيقة ١٨٧: تعن ابراهيم بك فوزيمديرا للاستوائية والرول فى ٢٧ يناير ١٨٧٨، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٤٦٨.

(٧) محمد سيد محمد: «المديرية الاستوائية ١٨٦٩- ١٨٨٩»، مجلة البحث العلمى والتراث الاسلامى، عدد ٦، السعودية، ١٩٨٣، ٣١٢.

ويبدو أنه لم يقدر لمنابع النيل الاستوائية أن يديرها مصرى، لهذا لفقت له حكمدارية السودان فى يونيو ١٨٧٨ تهمة الاتجار فى الرقيق، وأنه أرسل مركبا عليها٧٠ رأسًا من الرقيق من خط الاستواء بإذنه، فتم سجنه(١). ورغم أنه خرج من سجن السوباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩(٢)، إلا أنه بوشاية أقيل من منصبه كمدير للاستوائية، وعين مكانه الدكتور إدوارد شنيتزر، الذى سمى نفسه محمد أمين، وصار حاكما على خط الاستواء باسم أمين باشا. بعدها طلب إبراهيم فوزى نقله إلى مصر، فعاد للخدمة فى وزارة الحربية المصرية، وعمره ٣٠ عامًا. وفى سنة ١٨٨٠ عينه عثمان رفقى، ناظر الحربية، مأمورا لعمليات إقليم الغربية، ثم مأمورًا لتعداد النفوس بإقليم الجيزة، ثم عاد للغربية لفرز أنفار القرعة، ومحققًا فى دعوى جماعة من الضباط على البرنس إبراهيم باشا أحمد. بعدها أصبح باش معاونًا لنظارة الحربية، وظل بها حتى حوادث إطلاق الانجليز النار على الاسكندرية. فعين أميرلاى على اَلاى أول الفرقة الثالثة بثغر رشيد، ثم عسكر بابوقير إلى ما بعد واقعة التل الكبير واحتلال بريطانيا لمصر. ثم سجن بتهمة اشتراكه مع العرابيين، فجرد من رتبه العسكرية التى أحرزها وهو يقتحم الأهوال، على حد قوله، فى فتوحات خط الاستواء. هذا وكان مؤلفنا يعرفه كل حكام مصر معرفة شخصية، وكان يعرفه كل رجالات القصر وتشريفاته، وكل كبار الدولة. وحين تكونت وزارة نوبار فى ١٠ يناير ١٨٨٤ لتنفيذ سياسة إخلاء السودان(٣)، صحب غردون إلى الخرطوم فى يناير ١٨٨٤(٤)، فحصل على رتبة لواء ليصبح قومندانًا للعساكر البرية والبحرية الموجودة فى لخرطوم. وحين أصيب فى

---

(١) الوثيقة ١٩٦: حكمدارية السودن تتهم ابراهيم فوزى بالاتجار فى الرقيق وتشير لزياة بعض رجال امتيسا فى٢٧ يونيو ١٨٧٨، جميل عبيد: المرجع السابق، ٤٧٣.

(٢) الوثيقة ١٠٤: حكمدارية السودان تتنازل عن شكواها فى حق ابهيم فوزى فى ١٨ فبراي١٨٧٩، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٤١٧.

(٣) بابكر فضل المولى حسين أحمد:- السودان فى عهد الخديوي توفيق ١٢٩٦-١٣٠٢هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٥، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٠، ٢٠٨.

(٤) نعوم شقير:- المرجع السابق، ٤٣٦.

الخرطوم بجرح، عين فى وظيفة رئيس أركان حرب الحكمدارية، وأضيفت له وظيفة محافظ الخرطوم مع رئاسة الأركان، فمكث فيها حتى سقطت الخرطوم(١). فأسره الدراويش مدة أربعة عشر عامًا، إلى أن أنقذه الجيش المصري سنة ١٨٩٨(٢). وحينما خرج من سجنه كان معه ٨٨ سجينا(٣). وعلى هذا نحن أمام شخصية عسكرية وصلت لأعلى المناصب بكدها وعرقها فى سن صغيرة.

وفوق هذا وذاك، كان فوزى ضليعًا فى فن المقاومة بالحيلة، وفى فن التمويه وأدب اللياقة والتمثيل، لدرجة أننا نجد صعوبة فى التفرقة بين مصداقية الأداء من كذبه، إلا حينما ينبهنا هو نفسه، معلنًا بأن ما شاهدناه إنما هو لعبة قام بها المؤدى للنجاة من نقمة المهديين وسطوتهم. ولعل تصرفاته السياسية المراوغة مع المهدى والتعايشى، جعلت صاحبنا متميزا فى فهم علاقات القوة. وعلى هذا قدم لنا نماذجًا عديدة لتلك الحيل، وكشف لنا عن تصرفات لمصريين آخرين خلقوا من محنتهم موروثا مخفيا استغلوه فى نقد سلطة المهدى يقولونه من وراءه. بل كان هو أحد هؤلاء الذين يستبقون أفكار المهدى والتعايشى ويساير رغباتهما. لهذا مثل سلوكه الاحترازي بعدًا استراتيجيًا مهمًا فى عملية المقاومة بالحيلة. فكلما كان الحاكم القوى أكثر خطرًا، كان قناع صاحبنا أكثر سمكًا. فكان متميزًا فى قراءة نوايا المهديين وأمزجتهم. ومن ثم فإنه لا يمكننا أن نعتبر أشكال التنكر التى مارسها الرجل مجرد عوارض تاريخية يمكن أن نعجب بها أو نتأسف عليها، بل هى مثال لشخصية عسكرية كانت متقدة الذهن سريعة البديهة.

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، ١: ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤١،٤٤-٤٦، ٤٩- ٥٦، ٢٦٣-٢٦٦، ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) خالدة الشيخ:- شخصيات تاريخية.. إبراهيم فوزى، http://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-43316.htm.

(٣) سلاطين باشا، ضابط نمساوى جاء إلى مصر سنة ١٨٧٨ وعينه غردون حاكما على دارفور سنة ١٨٨٤ وادعى الاسلام فى عهد المهدية لكنه استطاع الهرب سنة ١٨٩٥، للمزيد انظر، سلاطين باشا: السيف والنار فى السودان، تعريب جريدة البلاغ، القاهرة – مطبعة البلاغ ١٩٣٠، التمهيد.

ومع ذلك تعرض الرجل للقيل القال وقذفته السهام من كل الجوانب، ووقفت سيرته لوحدها تدافع عنه. هذا ويظهر من كل المواقف التى تعرض لها، أنه كان محنكًا سياسيًا، سواء مع الخديو توفيق أو المهدى أو التعايشى. فعلى سبيل المثال انظر له وهو ينافق التعايشى حينما اتهمه «بأنه كان يخدم النصارى الكفار، فذكر أن الله قد أنعم عليه لأنه خدمهم بإخلاص، فكيف به وهو يخدم خليفة المهدى، الذى هو خليفة رسول الله، فضحك التعايشى ومال طربا». وأنظر إليه كيف يتصرف حينما اتهم بتهريب سلاطين باشا، فذكر «بأن سلاطين نصرانى ارتد عن الإسلام، وقد أبعده الله عن التمتع بمشاهدة أنوار خليفة المهدى عليه السلام فى الدنيا والآخرة، وطالما أن الخليفة التعايشى ينوى الزحف على مصر هذا العام، فلابد من أنه واقع فى قبضة المهدية، وسيلقى جزاء خيانته وهروبه، لأن الله طهر مدينة التعايشى من الرجس والمحرمات، وجعلها طاهرة مطهرة»[1]. وعلى هذا فإن اتهامه بأنه كان كان يجمع المصريين ليحرضهم على الثورة ضد الدولة المهدية، لم يكن نابعًا من فراغ. القسم الثانى، الظروف الى صاحبت تأليف الكتاب. فكتاب إبراهيم فوزى عن «السودان بين يدى غردون وكتشنر» عبارة عن جزأين. يتناول فى الجزء الأول فترة الخمسة عشرة عامًا من ١٨٧٤ وحتى سنة ١٨٨٥، ويقع تحته ٢١٧ عنوانا فى ٤٠٤ صفحة. وحين انتهى الجزء الأول وضع الجملة التالية «انتهى الجزء الأول من كتاب السودان بين يدى كتشنر وغردون، ويليه الجزء الثانى، وأوله قيام دولة المهدى فى السودان، وأن كل نسخ من هذا الكتاب تكون مختومة بختم المؤلف الذى هو هذا». أما الجزء الثانى فيتناول الفترة من ١٨٨٥ وحتى سنة ١٨٩٦، والعمل على استرداد السودان. وهذا الجزء يقع تحته ١٦٩ عنوانا فى ٣٦٤ صفحة. وكتب اللواء إبراهيم فوزى نسخة كتابه بخط يده. إلى أن نشرت مع بداية القرن ٢٠، حين وجد تشجيعًا من دار نشر أوروبية، وترجمها لجريدة المؤيدة التى نشرت نسختها العربية.

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، ٢: ٢٦١، ٣٢٢، ٣٢٣.

السؤال الذى يطرح نفسه للنقاش، هو لماذا خرجت مذكرات إبراهيم فوزى فى سنة ١٩٠٠؟ وللإجابة على هذا السؤال كان لابد من الرجوع للسياق الزمنى الذى ظهر فيه كتاب فوزى للتعرف على الظروف التى ساعدت فى تأليفه. فبالرغم من صدور مذكرات العديد من قادة الثورة العرابية فى نهاية القرن ١٩، إلا أنه لا يمكن تصنيف هذا الكتاب فى إطار موضة العرابيين فى إصدار مذكراتهم، لتغذية الروح القومية لدى المصريين(١). فبالرجوع لمذكرات سجناء المهدية، من أمثال رودلف سلاطين والأب أهور فالدر، التى قد قام بتحريرها السير وينجت باشا(٢)، والتى نشرت قبل نهاية القرن ١٩، نجد أن الدولة لمصرية كان لا يمكن أن تتجاهل الواقع سياسى لتلك الفترة. فهى شريك انجلترا فى الحكم الثنائى، وكان لابد من تسير على هدى الانجليز وتقتفى أثرهم فى معالجة الوضع فى السودان بعد استعادته واسترداده. ورغم أن ما كتبه ونجت، بأن إخلاء السودان سنة ١٨٨٥ لا يمحو حقائق الارتباط المتعددة التى نشأت بين مصر والسودان، وأن مصر أقامت خلالها مدنًا، وفتحت مدارس، وأنشأت تجارة، وكونت مجتمعات ونظام(٣)، إلا أن حديثة الاجمالى لا يصب فى هذا الأمر. بل ركز على الدور الذى لعبته بريطانيا فى استرداد السودان. ومن ثم فإن تبنيه لكتابات سلاطين باشا وغيره، ممن سجنهم المهدى ورجاله، كان هدفه هو التخديم على الرغبة البريطانية فى استقرار السودان لصالح بريطانيا بعد الحكم الثنائي. وهذا ما جعل مصر أيضا تقوم بنفس الشيء، لأنها أحد طرفى الحكم الثنائى.

فحينما خرجت مذكرات سجناء المهدى كانت بغرض الدعاية ضد أخطاء المهدية

---

(١) عبدالمنعم إبراهيم الجميعى:- اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.. القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة – دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٤، ٢٧.

(٢) فقد كتب سلاطين عن السيف والنار فى السودان، وكتب الاب اور فالدر عشر سنوات من الأسر فى معسكر المهدى، للمزيد انظر نعوم شقير: المرجع السابق، ٩٣٦.

(٣) «عرض وتحليل لكتاب عن حياة الجنرال ونجت حاكم عموم السودان وسردار الجيش المصرى»، عرض محمد شفيق غربال، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٦، القاهرة ١٩٥٧، ١٧٠.

وخطاياها من ناحية، وتقديم تبرير للعنف الذى صاحب عملية استرداد السودان فى المتمة وكررى وأم درمان من ناحية أخرى. وبطبيعة الحال كان لا يمكن لمصر أن تدع انجلترا تقدم رواية سجنائها عن فترة المهدى، لهذا راح المسئولون المصريون يهيئون إبراهيم فوزى بعد خروجه من سجن التعايشى سنة ١٨٩٨ لكتابة مذكراته. ومن ينظر لإهداء الكتاب يتأكد تمامًا من هذا الأمر، فالنسخة الأولى التى طبعها المؤلف على نفقته ونفقة إدارة جريدة المؤيد فى شهر صفر عام ١٣١٩ هجرية، أهداها إلى الخديوي عباس باشا حلمى الثانى قائلًا فيها: «إلى سدة مولاي وولى نعمتي الخديو المعظم عباس باشا حلمي الثانى الأفخم، هذه يا مولاى معلومات ومشاهدات شخص من رعيتك قضى فى السودان أكثر عمره بين ضابط صغير وقائد كبير وسجين أسير، رأى كل ضروب الرخاء والشقاء خلال المدة التى قضاها فى تلك الأرجاء، وهى حوالى الثلاثين سنة، ما تسنت لمصرى غيرى، ولذلك رأيت أن أجعلها بين دفتى كتابى هذا، الذى سميته السودان بين يدى غردون وكتشنر، لأن جميعها عبارة عن مقدمة ونتيجة انطوتا فى معنى هذا الاسم، فتقبل يا مولاى هذه الخدمة التى قام بها جهد المستطاع، عبد من أخلص مخلصى رعيتك لسدتك، لم ينس فى كل أطواره واجب ولاء عبوديتك»[1]. وبالنظر لتلك المذكرات وإعادة قراءتها المرة تلو الأخرى، نجد أن فوزى قد نجح فى المهمة التى كلف، وهى أن يمهد الرأي العام المصرى والسودانى لعملية الثأر والمجابهة فى حرب الاسترداد، مبررا بطريقة غير مباشرة العنف الذى حدث خلالها. فتركيز فوزى على ما حدث لأعراض المصريات بصفة عامة، والسودانيات بصفة خاصة، كان كفيلا بقبول ما حدث من عنف تجاه من ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة من رجال المهدى والتعايشى الأشرار. وتصبح أكبر مسرة هو أن تنتظر غرز تلك الهراوات داخل أحشاء من ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة. حيث يأخذك بسلاسة فى شرح ما حدث لتتمنى قدوم المصريين والسودانيين للخلاص من

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غردون وكتشنر، القاهرة، صفر، ١٣١٩، ١: ٢.

هؤلاء المغتصبين لشرف العفيفات، والانتقام من مستغلى الدين استغلالًا سيئا. واعتقد أن ما حدث مع إبراهيم فوزى قد تكرر حدوثه عندما قام يوسف ميخائيل بكتابة مذكراته المسماه «التركية والمهدية والحكم الثنائى فى السودان» سنة ١٩٣٤، أى بعد خمسين سنة من قيام الثورة المهدية.فحينما استشرى نفوذ المهدية فى السودان من جديد عن طريق عبد الرحمن المهدى، كان لابد من تذكير الناس بفظائعها وجرائمها فى حق السودانيين.

وعلى هذا فإن قيام بريطانيا، أحد أطراف الحكم الثنائى، بنشر المذكرات الدعائية، قد أوجب على مصر تقيم رؤيتها أيضًا فى هذا الموضوع. مرة للرد على تيار المدافعين المعاصرين عن المهدية، كعبدالقادر الكردفانى وغيره، ودحض رؤيتهم، ومرة أخرى لدعم تيار العلماء الذى خلقته خلال الثورة المهدية نفسها، وكان ممثلًا حينها فى الشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر الغربى والشيخ الأزهرى، ليستمر فى مقارعة أفكار المهدية فى حججها الواحدة تلو الأخرى. والسؤال الذى يطرح نفسه للنقاش: هل يمكن تصنيف كتاب فوزى فى إطار الحرب الدعائية التى شُنت ضد المهدية؟ أم أنه كمؤرخ إخباري أعطانا أيضًا رؤية جوانب مهمة لم يتطرق اليها احد كم معاصريه؟ فكتابات الرجل تعتبر سردية مهمة للجوانب السياسية والاجتماعية، قدمت لنا تاريخًا بطعم الرواية، ورواية بطعم التاريخ. ويبدو أن الدعاية لنشر هذا الكتاب قد وصلت إلى انجلترا قبل صدوره، فبالنظر إلى الخطاب الذى وصل لإبراهيم فوزى من شقيقة غردون، هيلين موفيت، فى ٢١ مايو ١٩٠١، وهو ينتهى من عمل مقدمته، لتشكره على ما ذكره فى حق شقيقها وصديقه غردون، وتستفسر منه عما حدث فى واقعة قتله، وتطمئن على حال البستانى الذى خدم مع إبراهيم فوزى شقيقها[١]، يشير بأن السلطات البريطانية كانت على دراية بكل خطوات المذكرات، وتطورات كتابتها ونشرها، وإلا فما الداعي لأن تحرض شقيقة غردون على كتابة هذا الخطاب فى لحظات

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غردون وكتشنر، ٨.

الطبع، إلا إذا كانت السلطات المصرية والبريطانية قد قرأت مخطوطات الكتاب، ووافقت على مضامينه.

واعتقد أن المذكرات فعلت فعلها فى بداية الحكم الثنائى، فكان عدد المضارين من المهدية داخليًا وخارجيًا كبير للغاية. ومن ثم فإن صدور الكتاب جاء ليؤكد على ديكتاتورية المهدي ورجاله، ويبشر بعهد جديد للسودانيين تحت مظلة الحكم الثنائى. وعلى هذا فان مذكرات فوزى تمثل إعادة كتابة للقصص والشتائم والشكاوى والمحن والمَاسي التى تقاسمها الجميع من وراء ظهر المهدى ورجالاته. بيد أن أهداف الكتاب تكمن فى توقيت إصداره ومحتواه لا فى مفرداته وأساليبه. غير أن هذه الكتابات لقيت رفضًا على المدى البعيد لكل ما جاء فيها. فقد وصفت إحدى الدراسات السودانية، بأن ما جاء فيها يعبر عن حقد وكراهية، وتغلب عليه المبالغة، وأن حقده صبه على التعايشى أكثر من المهدى، لأن الأخير وضعه فى الأسر(١). فالمؤرخون السودانيون الذين كتبوا تاريخاً بطوليًا عن شخصية المهدى، لم يتحملوا آراء مضادة لهذا التاريخ البطولى. صحيح أن قليل منهم اعتبر كتاباته ترقى لدرجة المصادر الأولية، وليس الثانوية، لكونه قد عايش أحداثًا عديدة، سواء فى السودان او فى مصر(٢)، إلا أن غالبيتهم تبنى موقفًا غير مفهوم من الرجل. فقد اتهموا كتاباته بالإجحاف فى حق المهدية ورجالاتها والقبائل التى انضمت لها، لهذا ابتعدوا عن الأخذ من كتاباته بطريقة محيرة. فكثير ممن كتب عن المهدية تجاهل الرجوع لكتاباته عمدا. ومن ثم رفضوا الخطاب المختلف الذى رفعه فوزى، وانحازوا لتاريخهم البطولى.

وبالرجوع لنص إبراهيم فوزى يتبين إثارته لقضايا هامة وخطيرة، فأول ما نلاحظه أن فكرته الرئيسية تدور حول أفكار المهدى وأباطيلها. وان قراءته الجزئية

---

(١) فيفيان امينة ياجى: «شخصية الخليفة عبدالله، مجلة الدراسات السودانية»، معهد الدراسات الافريقية الاسيوية بجامعة الخرطوم، مجلد ٨، عدد ١، ٢، السودان، اكتوبر ١٩٨٨، ٤٦.

(٢) بابكر فضل المولى حسين احمد: المرجع السابق، ك.

للتفاصيل تصب فى قراءته الكلية للموضوع. فهو لا يختلف فى تسمية الجنود المصريين للمهديين بالأشقيا، ولم يختلف معهم فى تسمية المهدى نفسه بالشقى أو الضال محمد أحمد(١). بل لم يقف عند هذا الحد، حيث جاء بالمزيد من الغرائب عن البعد الغيبى المرتبط بالحضرة النبوية. فأوضح أن هذا البعد كان حاضرًا فى العمل السياسى، ومن ثم ولد نوعًا من النصائح السيئة للسلطة. فكل من لم يؤمن بالمهدية قد مارس التقية، خشية تعرضه للانتقام. فحديث فوزى عن عدم وضوح السياسة الخارجية فى عهد المهدى، أورث خليفته عبدالله التعاشى منهجًا غير مفهوم. فشخصية االمهدى الذى يدعى التقاؤه بالنبى صلى عليه وسلم، ويصلى فى مساجد خارج السودان، فى مصر والحجاز والعراق وغيرها، خلقت صعوبة لدى التعايشى فى مسايرة تلك الادعاءات وترويجها. بل ان حديثه عن حروب التعايشى مع مصر والحبشة، فى ظل دول غير مستقرة داخليا، قدم لنا قراءة داخلية لصورة سودان لم يأت ذكره فى روايات المؤيدين لتلك الدولة. وهو ما يتقاطع مع رواية سلاطين فى كلامه عن محاولة فرنسا التنسيق مع المهدى ومساعدته، ورفضه تلك المساعدة، مدعيا بانه لا يتحالف مع امة غير مسلمة(٢).

ولا نمل من تأكيد فوزى فى الجزء الأول على هدفه من الكتاب، فحينما يتحدث عن الأوامر التى أصدرها المهدى بقتل أعوانه، مثل قتله للمنة، القائم بدعوته فى كردفان، وقتله للتوم زعيم الكبابيش، وعجيل زعيم الرزيقات، نتأكد من أنه يصب فى مفهوم الدولة الظالمة التى تقتل بنيها المخلصين. ولعل حديثه عن إقرار الناس بالتسليم للتعايشى ظاهرًا وباطنًا، وقيام الأهالى بتقديم بناتهم للمهدى كهدية يطأ الواحدة منهن كمملوكة يمين، وتقديم كثير من أعيان السودان لبناتهم كمحظيات للمهدى

---

(١) «يوميات عباس بك: معاون حكمدار عموم السودان الذى استشهد فى ميدان معركة شيكان بكردفان٥ نوفمبر ١٨٨٣»، عرض عبدالرحمن زكى، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣، عدد ٢، القاهرة ١٩٥٠، ٨٩، ١٠٨، ١٤٩.

(٢) سلاطين باشا: المرجع السابق، ١٣٥، ١٣٦.

وخلفائه[١]، فإنه يلفت نظر قراؤه لسوءات المهدية والشرور التى فعلتها فى حق السودانيين. وأنظر للجزء الثانى من الكتاب لترى بوضوح إنتقاد فوزى لإشكالية بناء الدولة والمشاكل التى واجهها عبدالله التعايشى بعد وفاة المهدى. فحديثه عن الانقسامات التى حدثت بين اقرباء المهدى والتعايشى، وسلسلة الإعدامات التى مارسها التعايشى ضد من شاركوا فى إنجاح الثورة المهدية نفسها، يوجهنا بشكل مباشر لتلك الإشكالية التى حدثت فى بناء الدولة المهدية لحظة التأسيس. فقد عكس الصراع السياسى بكل أبعاده، ليتضح بأن ما يدعيه البعض بان المهدية هى التى خلقت نموذج للدولة الوطنية، لم يكن صحيحًا. فقد ركز فوزى على إشكالية اعتماد التعايشى على قبيلته لنصرته، وعلى تشككه فى القبائل الأخرى. ومن هنا فان كتاباته قدمت لنا بصورة غير مباشرة، الوصفة الخاطئة التى تبناها التعايشى فى التحول من البناء الوطنى الى البناء القبلى، ناهيك عن صورة الحاكم الديكتاتور فى ابهى تجلياتها. فالواقع الاستبدادى الذى عاشه السودان فى فترة التعايشى، هو الذى ساهم فى تقديم رؤية غائمة حول صناعة القرار السياسى وصياغته، ليقول بشكل واضح بأنه هو المسئول عن اتخاذ القرارات الخاطئة وذات الإشكاليات الكثيرة والمعقدة.

المحور الثانى: منهج الكتاب ومصادره وأسلوبه

المنهج هو مجموعة خطوات متتالية تؤدى بالمؤلف إلى هدف محدد، ونتائج واضحة. ولما كان على المؤرخ أن يبحث فى فعل الانسان وأقواله، فعلى هذا وجب علينا فهم المنهج الذى تبناه إبراهيم فوزى لنفسه، والسرد الذى حول لنا فوزى زمنه التاريخي إلى زمن انسانى يخص العلاقات بين الأشخاص التى صنعت الأحداث، قد جعله زمنًا عامًا يخص الجمهور المستمع لهذا السرد. والخطاب الذى تبناه فوزى داخل تاريخه العسكرى الرسمى، لم ينصرف فيه عن التاريخ السياسي مطلقًا. بل برع فى وصفه، وفى

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غردون وكتشنر، القاهرة – دار الكتب والوثائق المصرية ٢٠٠٨، ١: ١٦٦-١٧٨، ٢٣٥.

وصف أبطاله وإبرازهم، لكنه اصطحب معه دوما الواقع الاجتماعى والاقتصادى للمناطق التى يتحدث عنها. غير أن تاريخه الاجتماعي لم يهتم بالعادات والتقاليد والطقوس والقيم والتدين بصورة كبيرة، بل جاء مفهوما مركبا معنيا بتأثير الوضع الاقتصادي على الناس، وكيفية تحولهم إلى طبقات متناقضة المصالح دون اختيار. وهو ما يفسر القيمة الكبيرة لكتاب فوزى باعتباره تاريخا مختلفا ومغايرا عن نمط الكتابة التاريخية السائدة طيلة القرن ١٩.

على أية حال، فإن غالب عناوين الكتاب وعددها ٣٨٦ عنونا عبر جزأين تقع فى ٧٦٨ صفحة. وتتناول هذه العناوين حادثة أو عدة حوادث على طريقة الحوليات. ورغم أن كثرة هذه العناوين تقف حجر عثرة أمام القارئ، إلا أنها تعبر عن وجود منهج واضح فى تناول الأحداث، هو أقرب للحوليات ومدرسة الإخباريين عن اى تصنيف آخر، فضلًا عن أن روايته للوقائع تتسم بأسلوب تاريخى مميز عن مؤرخي القرن ١٩. هذا وقد توفرت للرجل بعض صفات المؤرخين الكبار، كاتساع دائرته المعرفية، والمحايدة أحيانا، وخشيته من الوقوع فى الزلل والاعتماد على الرواية الشفوية وشهود العيان. ولهذا تنطبق على الرجل الصفتين: شاهد العيان، وراصدًا لشهود عيان آخرين، وجامعا لمنشورات المهدى ورجاله. وعلى الجانب الآخر فإن كتابات فوزى مثلت تغلغلًا للروح القومية داخل الكتابات المصرية، فإذا كان الراديكاليون المصريون قد أسسوا الحركة القومية ورسخوا لها مع بداية الاستعمار البريطانى، فإن إدراك هذا الوعى القومي يمكن رؤيته بوضوح فى كتابات براهيم فوزى باشا[١]. لهذا تعد كتابات الرجل كتابات فى الهوية، حيث تتعرض لمفهوم الشخصية الجماعية بشكل يثبت أن المصريين كانوا قادرين على التطور والترقى، ويملكون مقدرات فكرية وبناء وجدانى لم يتشكل عبر تاريخ مصر وجغرافيتها فقط، بل عبر وجودهم فى وادى النيل. فقد كان لهم روحا خاصة فعكسوها فى هذا الوادى فدان لهم. ومن ثم فإن

---

(١) LAHOUCINE OUZGNE, ROBERT MORRELL:- africa masculinties. Men in Africa from the late Nineteenth Cenury to the Present, New York, 2005, P. 158.

الكتاب يكتشف شفرة المزاج الخاصة بالمصريين، والتى تحرك أفعالهم وانفعالاتهم ومواقفهم، وأنهم اكتشفوها خلال توسعاتهم فى منابع النيل. واعتقد أن إبراهيم فوزى كان واحداً ممن ساهموا فى خلق الهوية القومية للمصريين. فالكتاب الذى كتبه بعد خروجه من السجن سنة ١١٨٩٨، وأصدره سنة١٩٠١، وضع فيها خبرته فى حوض النيل لمدة ثلاثين سنة. وواضح انه كان غير راضى عن الخدمة تحت قيادة الاتراك، حيث ركز على القومية المصرية التى تجلت بصورة واضحة عبر كتاباته، بل يعد هو أول من تحدث عن مفهوم قوة الدولة المصرية فى افريقيا(١). إذًا، نحن أمام مؤرخ مثقف وصانع للأحداث، فهو لا يعتمد على كتابات الآخرين فقط، بل يعتمد على ما رآه بنفسه وشارك فى صناعته. ولهذا نراه يتحرر من سلسلة الأسانيد، ويعتمد على مشاهداته ومشاركاته كوسيلة لاستقصاء الحقائق التاريخية. فكان يعمل على إبراز العناصر الرئيسة فى موضوعه. ورغم أنه لم يكن متعاطفًا مع السلطة أو دائرًا فى فلكها فحسب، بل كان صانعًا للأحداث ومحركا لها، إلا أنه لم يعدم الوعى بالتاريخ، ليتفوق فى مجال الكتابة التاريخية. وإذا كان التصاقه بالأحداث قد سمح له برؤية جزئية لها، إلا أن رؤيته الكلية زادت من المساحة المرئية لها.

ويعد كتاب فوزى نموذجا للكتابة عن المتناقضات، فكما عاشت فى ذاكرة مؤرخنا قصص البطولات والانجازات التى حققها المصريون فى السودان، عاشت معه أيضا قصص المَاسي والنكبات التي حاقت بكثير من الأسر المصرية بعد سقوط الخرطوم فى يد المهدى فى يناير ١٨٨٥. وكما تحدث عن الاستقرار الذى وفرته الإدارة المصرية فى وادى النيل، تحدث أيضا عن الفوضى التى خلقتها الثورة المهدية وانسحاب مصر من السودان. لكنه سد لنا فجوة معرفية بحقيقة ما حدث فى السودان بعد الخروج المصرى منها. وفى هذا الإطار حفظ لنا الرجل سجلًا مصريًا واسعًا فى حوض النيل. فقدم لنا عددًا من المخطوطات النادرة من منشورات المهدى، واستعان ببعض خطابات

---

(١) Ibid, ,PP. 155-157.

رجالات المهدية وزعامتها. غير أن تعليمه العسكرى وتكوينه، قد أثر فى كتابة تاريخه الامبراطورى. غير أن أفكاره الناقدة للأحداث، والمحرضة على استعادة مصر قوتها فى حوض النيل، ستتيح الفرصة للقارئ في تحديد مقاصد النص، واستنطاق المسكوت عنه، بما يجعل هناك أهمية كبيرة للكتاب فى قراءة الواقع السياسى المعاصر فى حوض النيل.

ومع أن ابراهيم فوزى لم يهتم بالتحليل بشكل كبير، إلا أن اختياراته للنصوص كانت تصب فى الهدف الرئيسي لكتابه، وهو فضح أباطيل المهدية وكشف غلوها. فكان يورد أحيانا نسخًا مبتسرة من رسائل المهدى، ربما لأن الرسائل ألموجهه للأقاليم لم تكن بصيغة أو ألفاظ واحدة. خاصة وانه لم يرغب فى أن يجعل كتابه كتابا لحشد منشورات المهدى، بل اختار من النصوص ما يُخدم على إبراز الأفكار المغلوطة للمهدية وينقدها(١). فهو يربط بين الحوادث وبعضها، ويدلل على أباطيل المهدى وسذاجة التعايشى وأعوانهم. ويبين فساد منهج المهدية وبعدها عن الدن الاسلامى، فقيام المهديين بتصنيف الناس«هم ونحن»، بمعنى من لم يؤمن بالمهدية قليس منهم، ومن ليس معهم فهو ضدهم، قدم المصريين فى وجه جديد كحكام للسودان فى عهد الحكم الثنائى.

ومن المؤكد أن التركيبة المعرفية لإبراهيم فوزى، باعتباره رجلًا عسكريًا، وشارك فى صناعة العصر الذهبى للإمبراطورية المصرية، كانت حاضرة فى كتاباته ومؤثرة فيها. فقد تأثر بالجو المحيط وإسقاطات السلطة، بما جعله يتلون مع السلطة ويمارس كل أنواع النفاق والدجل السياسى والحيل. بل جعلته يتفهم موقف شمال السودان البراجماتى فى الانحياز للمهدى طوعًا، ويعى إنحيازات الغرب السودانى للمهدية، فساعد فى خلق معسكر عقائدى هناك. فكلام فوزى يوضح بأن كردفان بصراعاتها

---

(١) حسين مؤنس: «وثائق عن مدى السودان»، حوليات اداب عين شمس، مجلد ٢، القاهرة مايو ١٩٥٣، ١٦٧، ١٨٦.

وانقساماتها قبيل ظهور المهدى، كانت أفضل حاضنة لفكرة الثورة وتبنيها وإنجاحها. بل إن التركيبة العسكرية لفوزى تتفق وادعائه الولاء لدولة المهدية تجنبا لعقوبات تنتهى بمقتله كرجل عسكرى ومقتل أسرته. فعبر عن الواقع السياسى الذى كان يعيشه. ولهذا وجب علينا النظر فى رواية فوزى، ونوطن لها فى إطار الروايات الأخرى. حيث يحتوى الكتاب على مادة معرفية غزيرة ومهمة، لكنه لم يتعمق فيها بالشكل المناسب فى رؤاه التاريخية.

وفما يتعلق بمصادر الكتاب، فلم يكن فوزى فيما يحكيه عن مشاهداته بالمؤرخ العادي، فقد كان قياديا وقريبا من صانعي القرار السياسي، ويعرف ما يجري فيه من تطورات وأحداث. ولهذا تعتبر كتاباته هى المرجع الرئيسي عن تاريخ مصر فى حوض النيل. بل اتسمت كتاباته بالموسوعية، حيث اصدر جزائين من القطع الكبير. ويتحدث هو عن مصادره فيقول بأنه اعتمد على رؤيته المباشرة، واستعان بجماعة من موظفى الحكومة، ممن كانوا قائمين بالعمل قبل دولة الدراويش الزائلة، حيث كانوا متفرقين فى أقسامها، بحيث كان له شاهد عيان على كل واقعة او حادثة، وأنه أطلع على ما كتبه سلاطين باشا ومسيو نيوفلد وغيرهما، ممن شاركوه فى حوادث السودان، وانه استعان بمنشورات المهدية التى ثبت بالتواتر روايتها، وثبت فى نفسه مغزاها. وأنه حقق فى كل رواية ذكرها، مبينًا مقصدها، لدرجته جعلته وهو ليس بمؤرخ أو كاتب يعتقد «بأنه وفىً التاريخ حقه»، وأنه بعد أن أتمه وضعه بين يدى بعض الكتاب لمراجعة ألفاظه، وتنقيح عباراته وحذف المكرر منه، وعمل ترتيب وقائمة على ما يناسب الموضوع زمانًا ومكانًا. طالبًا بأن يعذره كل من كتب عن الأحداث بشكل غير الذى كتب به، لأن حوادث السودان كثيرة، وبها من الثورات والعواصف ما يختلف فيه التفسير. وأن تفسيره للحوداث جاء حسب ما شاهدها هو. لكن هناك حوادث يتحدى غيره أن يكون قد كتب عنها مثلما كتب هو، سواء فيما يختص بصحبته لغوردون ومعرفه مقاصده، أو شواهد دولة المهدى واضطهادات التعايشى، فيشير

على منافسه بأن «يخطئه فيها، وإلا فما كتبه فإنه هو الصواب»[١]. واعتقد أن الرجل فى كتاباته عن غوردون استطاع تغيير صورته فى ذهن قراؤه، فإظهار الرجل كبطل فى نظره انعكست فى الصورة الايجابية فى مجمل كتاباته. فوصفه فى مواضع عدة، بأنه كان لا يقبل شربة من احد، ولا يقبل هدايا مطلقا، وغير ذلك من أمثله تقدم غوردون الشهم والرجل والمقاتل، فإنه يبرز جوانب خفيه عن الرجل.

وفيما يتعلق بأسلوبه، فإن مؤرخنا إبراهيم فوزى يتشابه مع المؤرخين المصريين المعاصرين له فى الأسلوب واللغة، إلا أنه يختلف عنهم فى أربعة أمور: أولها، حسه القومى ونزعته العسكرية. فالتاريخ لديه هو سجل للمبادئ والأفكار ومواقف الحكام وحروبهم من اجلها. ثانيها، أن كتابه يعد تاريخا عالميا وإمبراطوريا، فقد ظل تاريخ مصر حتى ظهور هذا الرجل، تاريخًا محليًا. ثالثها، اعتمد أسلوبه على التدقيق والترجيح والتحقيق والاعتماد على الكتب والرواة الثقاة. رابعها، تميز أسلوبه بالدعوة لتاريخ مركزى امبراطورى، محرضا على بقاء السودان فى ظل مصر.

أما اللغة عند فوزى فهى أداة للأفكار، وبالتالى هى مرتبطة بمعرفته وتعليمه. وبحكم انه رجل عسكرى فانه لم يحاول ان يأت بغريب الألفاظ وعجيبها، بل كانت لغته لغة السهل الممتنع. فاستطعنا من خلال لغته ان نعرف من الذى يتكلم؟ وما وراء الكلام وأبعاده؟ واعتقد أن الرجل قد بذل جهدًا كبيرًا للانتقال من مرحلة صناعة القرار إلى مرحلة التمثل للمرحلة التاريخية التى عاشها، ثم التفكر والكتابة. ورغم أن غالبية كلمات فوزى كانت عربية مصرية خالصة، إلا أن بعض مفرداتها جاءت سودانية. وكما جرت العادة على مؤرخى العصر فقد غلب السجع والمحسنات البديعية على مقدمة الكتاب[٢].

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: «السودان بين يدى غردون وكتشنر»، جريدة المؤيد، صفر، ١٣١٩، ٦، ٧.

(٢) نفسه، ٤ – ٧.

المحور الثالث: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى أوغندا والمنابع الاستوائية

من المؤكد أن كتابات فوزى عن التوسعات المصرية فى منابع النيل الاستوائية، والمتصدرة للصفحات الأولى لكتابه، تحمل من المعانى ما يصعب على الأذهان تصوره، وبما يجعل كتابات غيره عنها مجرد أحاديث وهمية. ففى أول صفحة من كتابه يفصل لنا مسألة تعيين غوردون حاكما عاما للمديرية الاستوائية، وكيف أن انجلترا هى التى طلبت هذا التعيين من الخديوي إسماعيل، فأصدرا أمرًا بتعيينه فى تلك الوظيفة فى يناير ١٨٧٤. فتم الاتفاق على ان تصبح المديرية مستقلة فى عهد غردون عما كانت عليه فى عهد سلفه صمويل بيكر، حيث كانت تابعة لحكمدار عموم السودان. ويعطينا تفاصيل عسكرية أكثر عن مهمة غردون فى خط الاستواء، فيقول بأن الخزينة المصرية أعطته مبلغ ١٠٠ الف جنية كدفعة أولى من نفقات حملته، واختارت له من أبناء الغرب السودانى أربعة بلوكات من عساكر الجهادية، مسلحين بأسلحة رامنتون، وتولى رئاستهم ضباط يملكون خبرة عسكرية ونشاط وإقدام. لكن لم يغب على مؤلفنا أن يكشف لنا خشية الخديو إسماعيل من أن يصبح غوردون أداة لتنفيذ مقاصد بريطانيا التى يعلمها، فأوصى حكمدار السودان إسماعيل أيوب بأن يخلصه من تلك الورطة. وهنا يبرز لنا المؤلف بداية رحلته مع الأحداث، حيث عبر فى الخرطوم عن رغبته فى صحبة الحملة، فرفض إسماعيل أيوب. وحين اتضح لغردون بانه اختار له أسوأ الجنود وانكشف أمره، تدخلت الوكالة البريطانية بالقاهرة لصالح غوردون. وهنا يقص علينا بداية معرفته بالرجل، وانه طلبه بالاسم، فذهب إليه فى سراى الشرق، فوجده حليمًا شفوقًا كريم الأخلاق متواضعًا فى حديثه وحركاته وسكناته، مع مخايل شرف النفس وعلو الهمة، فكلفه بمهمة فرز البلوكات الأربع وضباطهم وأسلحتهم، فأجابه بأنه هو الذى رغب فى خدمه بلده بطلب مرافقته[1]. وعلى هذا

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٥-١٠.

يتبين بأن رغبة فوزى فى صحبة غردون فى الحملة الاستوائية، كانت رغبة شخصية، أراد منها أن يخدم بلده فى أقصى منابع النيل الاستوائية.

وهنا يدخلنا إبراهيم فوزى إلى عالم السحر والبطولة والأمجاد، فيتحدث عن الصعوبات التى واجهتها القوات المصرية المصاحبة لغوردون فى مديرية خط الاستواء منذ وصولهم إلى فاشودة، فغندكرو، فبحر الزراف والغزال، كانسداد الأنهار بالأعشاب الكثيفة الملتفة، والحشائش المشتبكة من الشاطئ إلى الشاطئ. وانهم باشروا فتح طريق واحد عند مشرع الرق مدة أربعين يومًا، ليقطعوا الغابات الكثيفة، ويزيلوا حشائش النهر فى ظل انسياب الأمطار عليهم بالليل والنهار، والتى يصفها بأنها كانت كأفواه القرب. وأنهم بعدما ساروا الى شانبيه وجدوا تجارًا أمثال أبو عمورى، وكوجك على، وغطاس وغيرهم، ينزلون فيها للاتجار بسن الفيل. فانشئوا مركزًا أقام عليه غوردون أحد المصريين حاكمًا. ثم ذهبوا للرجاف وأقاموا مديرية بور، وعينوا عليها ضابط سودانى. وفى غندكرو وجدوا رءوف باشا، فحكى لهم عن الجهود التى بذلها لإقرار الأمن والاستقرار فى تلك المناطق. لكنه تبين سوء إدارته وغلظته فى معاملة الاهالى فعزله غردون، وولى أحد السودانيين مكانه(١). وفى هذا السياق أشارت إحدى الدراسات بان ما طرحه إبراهيم فوزى بتأنيب غردون لصمويل بيكر ورءوف بك لسلوكهما العنيف تجاه الاهالى لم يكن صحيحًا، وان الوثائق المصرية أثبتت امتداحه لهما ولإدارتهما. غير أن قيام غردون بإحراج رءوف باشا لإخراجه من المديرية الاستوائية(٢)، يصب فيما قاله إبراهيم فوزى سابقًا. فكانت سياسة إبعاد المصريين عن تلك المنطقة، سياسة واضحة، بحيث لا يستطيع أي مصرى أن يتولى أمر المديرية الاستوائية أبدًا.

وفيما يتعلق بأوغندا، فقد تحدث بأنهم بعد انتهائهم من القضاء على مقاومة الأهالى

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٥-١٠.

(٢) جميل عبيد: المرجع السابق، ٥٩.

التى ظهرت فى جبل مقى، قصدوا البحيرة الكبرى، فوصلوا بعد يوم واحد جهة اللابودية. فظلوا يسيرون حتى وصلوا البركة والميعة العظمى المسماة نيانزا. فوصف لنا الأجواء المحيطة بها، وكيف انهم استكشفوا محيطها وشواطئها. ثم راح يقص علينا وجها آخر من أوجه السياسة المصرية التى أمر بها الخديوى إسماعيل فطبقها غردون. فيقول «رأينا كيف يستعين بنا أهالى الديفلية المظلومين للدخول طوعًا فى رعاية مصر، بسبب المظالم التى يتعرضون لها من حكامهم من قبيلتا أريونجا وبكريك». فيحدثنا كيف تعاملت مصر مع الموقف فى تلك المناطق، حيث أرسلت نصف ترسانتها ونصف عمالها فى الخرطوم، لبحيرة نيانزا لعمل ترسانة فى محطة الديفليه على شاطئ البحيرة الغربى، وأنهم وضعوا نحو أربعين سفينة وخمس شلبات كبار، لكل ما يحتاجه خط الاستواء. وكيف أنشأ غردون ديوان خط الاستواء منفصلًا عن حكمدارية السودان، ورتب له الكتاب والموظفين، فعين عليه على افندى سراج، كملاحظ لأشغال خط الاستواء. ثم راح يحدثنا عن الصدمة الحضارية التى حدثت للاهالى، حين يصف كيفية اصطفاف أهالى البحيرة معجبين مندهشين من رؤية وابورات المصريين وهى تتحرك، إذ لم يكونوا رأوا سفينة بخارية من قبل. وكان إعجابهم يزيد كلما رأوا ضخامة أحد البابورات، ويتعجبوا فى كيفية نقله الى البحيرة مع تلك الضخامة. متحدثًا عن عملاتهم من النحاس الأصفر والخرز والودع الأبيض، وكيف كانوا يأتون إليهم ليبادلونهم سن الفيل الذى لديهم. وكيف تمت فتوحات كثيرة فى تلك الجهات المحيطة بالبحيرة دون إراقة أى دماء، وكيف تمت المواصلات بينها وبين محطة الديفلية، وكيف سارت الملاحة سهلة بين البحر الأبيض وبحيرة نيانزا. فأمكن تردد التجار والسياح الأوروبيين عليها. مستمرًا فى حديثه المتدفق حول توسعهم فى بلاد الوالى كبريكا، والسلطان أريونجا شرق البحيرة جهة فاتوكة، فاكتمل لهم الاستيلاء على البحيرة. ولعل الخطاب المعلن من قبل الخاضعين فى حضرة من يمثلون السلطة المصرية، قد جعل المصريين أبطالًا فى نظر السكان المحليين. فقد تحدث عن قبائل وضعت التراب داخل أفواهها كعلامة على الخضوع للمصريين، وكيف ساروا

بالجنود المصريين الى جهة مرولى من أراضى الملك أمتيسة. قائلين لهم بأن الملك أمتيسة ملك جبار عظيم السطوة، شديد البأس كبير القوة، وعنده الأسلحة النارية والمدافع، ويخشون من أن يكتشف أنهم أدلاء للمصريين، فيرسل لهم قوة تفتك بهم، وتنهب أموالهم وتهتك أعراضهم، فأدخلهم غردون تحت رعاية الحكومة المصرية، فأمنوا أعدائهم وديارهم، وعبروا بأنهم ذاهبون إليه ليدعونه وقومه لطاعة الحكومة الخديوية، فإن امتثل كان بها، وإلا أخضعوه بالقوة(١). فانظر لطريقة عرض الرجل لأوج التوسعات المصرية، وكيف انقادت القبائل للقوات المصرية وخضعت لها، بالقوة تارة وحسن سياسة الأمور تارة أخرى.

ولما بلغت المحطات المصرية فى الإبراهيمية (دوفيلى) وفاشيلى وفاتيكو وغيرها، درجة كبيرة من التقدم، حيث أدخلت المحاصيل المصرية كالباميا والملوخية والبصل والفلفل والطماطم واللفت وغيرها. واطلق اسم بحيرة ابراهيم على بحيرة كيوجا، عقد غوردون معاهدة مع أمتيسة فى ١٩ يوليو ١٨٧٤، متقبلًا وضع مملكته تحت حماية مصر. فانشئوا محطة على بحيرة فيكتوريا، ثم محطة عسكرية مصرية فى عاصمة أمتيسة فى دوباجا، حسب طلبه، حيث قبل بنفسه بأن يتنازل عن استقلال بلاده لمصر. ونشرت الوقائع المصرية فى ٢ أغسطس ١٨٧٦ نبأ وصول مصر لعاصمة أوغندا. وفى هذا الإطار تحدث إبراهيم فوزى عن تعبير امتيسا فى أن يكون بلده ومصر يدًا واحدة. وأنه بلغ من قوة مصر انها بعد احتلال العاصمة، راح جنودها يكتشفوا المناطق المجاورة، مما جعله يستعين ببعضهم لتدريب جنوده. وعلى هذا فقد حقق المصريون أهم هدف كان الخديوي إسماعيل يسعى لتنفيه وهو تملك بحيرة نيانزة فيكتوريا(٢). ولعل حديثه بأنهم سيروا حمله كبيرة لقتال امتيسة أخافت الاهالى، مما جعلتهم يفرون من أمام الجيش المصرى المتحرك، خوفا من

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٤-٢٢.

(٢) جميل عبيد:- المرجع السابق، ٩٢، ٩٥- ١٠٧.

بطش امتيسة، يثبت قوة ملك لوجاندة فى تلك المناطق. ولعل حديثه عن تعبير أحدهم عن خشية تلك القبائل من لوجاندة «بأن ينم الحجر والمدر والشجر عنهم، ليبلغ الملك امتيسه الذى له من كل شيئ واش ورقيب، بأنهم يتعاونون مع الجيش المصرى»، وأن هذا القول اضحك غردون، يدلل على سلطة امتيسة فى تلك المناطق. بل إن عودته لتعبير الرجل «بأن جميع الأشجار التى يرونها تخبئ عددًا من أعوان الملك، وأن أخبارهم تصل إليه دون شك أولا بأول عن كل حركة وسكون»، تدلل على جو الرعب الذى كان الأهالى يعيشونه خوفًا من غضب امتيسة وانتقامه منهم. وهنا يستمر فوزى فى الحديث عن كيفية إخضاع امتيسة، فيحكى كيفية فتح مرولى، أول مديريات امتيسة، وكيفية مناوشة الاهالى لهم بالقتال. وأن غردون بدأ يخابر أمتيسه ويعاتبه على فرار الاهالى من أمام المصريين، وتركهم لبلادهم، وأنهم «أتون باسم الحكومة المصرية، وهى قوية السلطان شديدة البأس، تريد تعميم المدنية والعدالة فى بلاده وتفتحها لخير التجارة وتبادل المنافع، وإن كان الملك امتيسه يريد خيرًا لبلاده صافى الحكومة المصرية، واستظل تحت علمها الوارف، والا أتاه بجنود لا قبل له بها، وأراه من قوتها واقتدارها ما يدك الجبال الرواسى، ويرغم أنوف الجبابرة، وانه مقيم بمرولى ينتظر رده». فانظر كيف بلغت القوة المصرية عظمتها فى منابع النيل، فحديث القوة يتضح فى تعليق فوزى «بأنه لم تمض أربعة أيام حتى حضر رسول من عند امتيسة يلوم غردون على تهديه الملك، لكنه يوافق على تشييد المحطة التى يريد المصريون تشييدها فى مرولى فى الحال، وإذنه للاهالى بأن يعودوا، وان يتبادلوا مع العساكر المصرية البيع والشراء، وأن المصريين بناء على هذا، قاموا ببنائها ورفعوا العلم المصرى عليها»[1]. ورواية فوزى السابقة تدعمها إحدى الدراسات التى أثبتت أن النفوذ المصرى فى أوغندا كان قويا لدرجة جعلت امتيسا يرسل ابنته لمصر عام ١٨٧٤، فبقيت هناك ثمانية

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٢-٢٤.

أعوام، مما جعل الخديوي إسماعيل يرغب فى تزويجها لأحد ضباطه، وحينها يرسله نيابة عنه ليمثله فى بلاط امتيسا(١).

ويستمر حديث فوزى متدفقا عن التوسعات المصرية الضخمة فى منابع النيل، فيشير الى إرسال غردون لمصر ليستحضر للملك امتيسة عربة يركبها، وانها هى التى كان تعايشى السودان يركبها فيما بعد. ثم راح يعطينا ملمحا عن امتيسة وملابسه، باعتباره أول مصرى يشاهد الرجل، فقال بأنه «كان يلبس القباطى الحريرية التى تصنع فى زنجبار، ويضع على رأسه عمامة كعمامة أهل مكة، وفى رجليه الجوارب والنعال الحمر، ويسكن بناء منظمًا»، متحدثا عن الشاب مفتاح الذى كان يحرسه، ويعمل مترجما له، كونه تعلم الانجليزية والعربية فى زنجبار. معتبرا امتيسة أقوى حاكم فى مجاهل افريقيا، وان أهل بلده على نوع من التقدم نوعا ما عن أهالى الجهات الأخرى. وأنهم يزرعون بلادهم بالكروم والحدائق، وان الغابات التى يمشى المسافر فيها أياما لا يكاد ينتهى لآخرها، تنتشر فى تلك البلاد. وهنا يطلعنا فوزى على امتداد الحكم المصرى فى بلاد امتيسه، فيقول بأنه حين استقر المصريون فى بلاد امتيسة فكر غردون فى دعوته للإسلام لأنه دين الحكومة المصرية فأجابه بالقبول، فطلب إرسال علماء لتعليمه وقومه أحوال الدين الاسلامى. فأرسل له فى الحال اثنين من أئمة الأؤرط العسكرية، واثنين من الحلاقين ليجريا لهم طريقة الختان، فاستقبلهم امتيسة بالحفاوة والكرم، وحين قابله الإمامين وجدا عنده أربعة قساوسة بروتستانت جاءوا إليه من زنجبار، فجعل هؤلاء عن يمينه، وهؤلاء عن يساره، وأخذ يسألهم، وحين تحقق من الإمامين أن غوردون مسيحى، وأن دينه كدين القساوسة، اختار الدين المسيحى، وكتب لغوردون يستشيره فى دخوله للنصرانية بعد تركه للفقيهين أياما طويلة، لا أحد يسأل عنهم، بلا قوت، يكاد يقتلهم الجوع، فرجعوا من حيث أتوا.

---

(١) محمد سيد محمد: «أوغندا قبل الحماية البريطانية»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة، مجلد٣، عدد٣، السعودية ١٩٧٨، ٦٧.

وهنا قطع ابراهيم فوزى بأن الرجل لم يدخل الإسلام بل اتهمه بالنفاق، كونه قد نظر لمصلحة نفسه، واستعمل كل غش وتدليس، فرغب فى الإسلام أول الأمر، ثم حين عرف مسيحية غردون اعتنق النصرانية دينا. واصفًا نفاق امتيسه عمليًا «بأنه كانت عنده رايتان فإذا حضر أحد من قبل المصريين رفع الراية المصرية، بحجة انه تابع للحكومة المصرية، وإذا حضر سياح أجانب أدعى أنه خاضع للسلطة الانجليزية، وانتهى أمره برفع العلم البريطانى دومًا، ولذلك تركه غردون على حاله، واعتبر مديرية مرولى اَخر حدود السلطة المصرية، وعين بها محمد ابراهيم بك، من مواليد السودان واسمه ابن جميعة، مديرًا عليها» (١). وعلى هذا فان موقف إبراهيم فوزى يعد موقفًا متفردًا فى موضوع امتيسه. خاصة وان الوثائق المصرية نفسها تقطع بإسلامه(٢). وهناك من يقول بأنه أسلم بتأثير سلطان زنجبار لمساعدته فى حالة الهجوم عليه من خديوى مصر(٣). وهناك من يتأرجح فى موضوع إسلامه(٤).

وكما أمر غوردون فى ٤ ابريل ١٨٧٧ بالتقدم لمنطقة البحيرات قبل وصول الاوروبيين(٥)، أمر أيضًا، حسب رواية فوزى، بسحب قواته من عاصمة امتيسة. وهو الأمر الذى رفضته مصر، لأنه هو الذى طلب التبعية لمصر، وطلب إقامة العساكر المصرية ببلاده، واستجاب الخديوي إسماعيل لهذا الطلب، وعمم طلبه ببقاء القوات

---

(١) ابراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٤-٢٦.

(٢) الوثيقة ٢٨: خطاب خديوى للملك امتيسة ملك لوجاندة يهنئه باعتناق الاسلام ويعده بارسال العلماء والهدايا فى اول سبتمبر ١٨٧٤، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٦٦.

(٣) عبده كاسوزى: «الكاباكا موتيسا الأول يوطد الإسلام فى مملكة بوقاندا ١٨٦٢-١٨٧٥»، مجلة الراصد، مركز الراصد للدراسات السياسية والاستراتيجية، السنة ٤، العدد ٧، السودان، ديسمبر ٢٠٠٩، ١٢٩.

(٤) أحمد عبدالدايم محمد حسين: الوجود العربى فى منطقة البحيرات الافريقية الكبرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، مجلة كلية الاداب، جامعة حلوان، العدد ٢١، السنة ١١، ٢٠٠٧، ٥٢٠، ٥٢١.

(٥) الوثيقة ٧١: أمر لغردون فى ٤ ابريل ١٨٧٤ بالتقدم لمنطقة البحيرات قبل وصول الأوروبيين اليها، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٩٢.

المصرية فى عاصمته على قناصل الدول عبر الجرايد، طالبًا من غوردون ضرورة إرجاعه لمصر واستمالته[١]. غير أن الخطوات التى اتخذها غوردون بسحب قواته خارج عاصمته، استدعت الخديوي لأن يصدر أمر بتعيين حدود خط الاستواء وتوصيفها[٢]. فبعد تأسيس مديرية مرولى، رجعوا إلى اللادوه مرة أخرى، حيث فرح الأهالى بعودتهم فرحًا عظيمًا، وصارت مدينتهم عاصمة لقطر شاسع. وكانوا يأملون بأن يكون مستقبلها عظيم كبقية العواصم الكبرى. فسيطرة الجيش المصرى على ثلثى أوغندا خلصت الأهالى من سيطرة أصحاب الشركات المستبدين. فيحكى لنا كيف خلص وكيل التاجر المصرى الكبير احمد العقاد، ويدعى طه بن محمد، ومن معه من المصريين من الورطة، بل عادوا بالآلاف من حمر اللاتوكة الخضراء التى تدر الألبان، فوزعها على الضباط والعساكر، حيث دربت على الركوب والحمل. ويقص علينا طرقا من طريقة الحكم المصرى للمنطقة، بأنه «حينما صارت المديرية الاستوائية فى قبضة الحكومة المصرية وترامت أطرافها، اختار غوردون أن يضم إلى قواته بعض العبيد من العساكر المأجورين فى حراسة الزرائب، فصاروا بعد ذلك أحسن الجنود دربة ونظامًا. وكان يراعى شيئًا مهمًا فى إقامتهم، هو إبعادهم عن الخدمة فى مراكزهم الأصلية، فالذى أصله من الغرب، يبعث به إلى نقطة فى الشرق، والعكس بالعكس. مراعيًا تخالف الأميال ونفرة القبائل التى كانت مستحكمة، عملًا بقاعدة « أُحكم كل جهة بأعدائها». وهكذا كلما احتاج إلى عساكر يرسلها إلى جهة ينتخبهم من أعدائها، لتتأيد سلطته بتلك على الجميع[٣]. ونخلص من كل ما سبق بخمسة نتائج رئيسية: اولها، أن السيطرة العسكرية المصرية على مجمل مناطق النيل الاستوائية كانت سيطرة

---

(١) الوثيقة ٦٩: مصر ترفض سحب قواتها من عامة الملك امتيسا وتطلعاتهم فورا، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) الوثيقة ٦١: أمر لحكمدار السودان بكيفية تعيين حدود خط الاستواء بالاتفاق مع غردون فى٨ مايو ١٨٧٤، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٦-٢٨.

كاملة. ثانيها، أن المصريين كانوا اول قوى خارجية تضع أيديها على تلك الجهات. رابعها، أن الواقع الاجتماعى والاقتصادى لاهالى تلك المناطق كان جيدًا من ناحية الثراء وكثرة الخيرات، لكنه كان سيئًا من ناحية الظروف الاجتماعية. خامسها، أن حديث إبراهيم فوزى عن تلك المناطق يحمل تاريخا إمبراطوريًا مصريًا مشرفًا فى منابع النيل، وأن روايته هى التى فكت لنا كثير مما ورد فى الوثائق الرسمية.

المحور الرابع: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى السودان

أشارت بعض الكتابات السودانية بأن كثير من الكتابات الأوروبية حول الفترة من ١٨٢٠- ١٨٩٨ قد اتسمت بالانطباعات الشخصية. وأن الحكم المصرى كان فى عمومه حكمًا سيئًا، وأن المهدى كان محقًا فى ثورته ضدهم[١]. فحديثهم عن الفساد والخزعبلات التى تركتها الحكومة المصرية تنتشر، وانشغالها بالتباهى بما أدخلته من إصلاحات، يجعلنا نقدم كتاب إبراهيم فوزى كإنموذج لهؤلاء الذين قدموا رواية متوازنة. فمن المؤكد أن غالبية حديث الرجل قد انصبت على السودان المصرى أو سودان المهدية، لكنه لم يعتمد على مشاهداته فقط، بل راح يمارس مهمة المؤرخ باقتدار. فأورد بابًا عن تاريخ السودان القديم منذ العصور القديمة والوسطى، منتهيا بفتح محمد على له، متحدثًا عن زيارته، مفصلًا الحديث عن ولاته وطريقة حكمه. ثم دخل مباشرة فى الترجمة للمهدى معلنًا موقفه فى صياغة عنوانه «ترجمة للمتمهدى»، أى مدعى المهدية. متناولًا سيرته ودعواه السرية ثم العلنية، وموقف مصر منها. وعن انتقاله إلى كردفان، التى أصبحت حاضنة لدعوته، وعن جهود الإدارة المصرية فى كشف بطلان دعوته، فكلفوا العلماء المصريين بفضح دعواه وبيان زيفها. مركزًا على القبائل التى دخلت فى طاعته، موردًا العديد من منشورات المهدى التى تطرح أفكاره

---

(١) عرض كتاب جابرييل وربيرج: اختلاف الرؤى التاريخية فى وادى النيل، هيرست شركاه، لندن، ١٩٩٢، عرض حذيفة الصديق عمر، مجلة محاور، مركز محمد عمر للدراسات السودانية، جامعة ام درمان الأهلية، السودن، يوليو ١٩٩٨، ١٢٦، ١٢٧.

وتدينها. فاضحًا علاقته بالنساء وبالتقشف، ذاكرًا بأن منشوراته هى مجرد توظيف لكلام الشيخ الغزالي فى كتابه إحياء علوم الدين. مفسرًا لنا كيفية تبنى وسط السودان لدعوته، منتقدا أخلاقيات تلك القبائل وسوء نسائها. منتقدًا كثير من القرارات التى اتخذها القادة العسكريون خلال مواجهتهم للمهدى، سواء يوسف الشلالى أو محمد سعيد باشا والى كردفان وغيره. غير أن حديثه عن أخلاق قبائل انحازت للمهدية، هو الذى جعله مستهدفًا منها. ومع ذلك انتقد الفساد الحادث فى الخرطوم قبل سقوطها، فتحدث عن تزوير العملة، وخيانة إبراهيم رشدى، كاتب غردون، الذى زور توقيع جعفر مظهر، وكان يبيع الوظائف لمن يدفع له، فكون ثروة طائلة بعشرات الالوف[1]. وإذا كانت مراسلة السير مالت إلى إيرل جرانفيل فى ٢ اكتوبر ١٨٨٢ تشير لحوداث وقعت فى ١٧ سبتمبر ١٨٨٢ وتعلن عن ثورة شبت فى السودان على اثر برقيات أرسلها عرابى باشا إلى أهالى السودان، يأمرهم فيها بنبذ سلطة الخديوي، لأنها قتلت منهم خلقًا كثيرًا، مطالبًا بسلاح وقوة [٢]. ورغم أن إبراهيم فوزي لم يكن فى السودان حين قامت الثورة المهدية، إلا أن عودته مع غوردون للقضاء عليها، وسماعه من شهود العيان جعلته يسمع كل ما يدور حولها. فلم يشعرنا بأنه كان بعيدًا عن السودان أبدًا. لكن وجب علينا أن نتفهم بأنه كخصم عسكرى وسياسى للمهدى، قد استخدم مصطلح العدو بشكل مباشر عبر كتابه، ومن ثم فان موقفه كان واضحًا من البداية للنهاية. فهو هنا ليس بمؤرخ بقدر ما هو خصم لمتمرد خرج عن طوع دولته. لهذا فإنه حين شرع فى شرح الأسباب التى جعلت المهدية تحقق انتصاراتها، راح يوجد المبررات التى جعلها تتصاعد وتنتصر، فقال بأن الحكومة المصرية كانت واقعة تحت براثن الثرة العرابية، ومخالب الأزمة المالية، وبالتالى لم تكن لديها القدرة على دعم جنودها المقاتلين ضد المهدى. بل انتقد موقف إسماعيل باشا أيوب ضد مطالب

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٣٥٢-٣٥٦.

(٢) مراسلة السير مالت إلى ايرل جرانفيل فى ٢ اكتوبر ١٨٨٢ مذكرة ارسلها الكولنيل تشارلس ولسن، للمزيد انظر، عمر طوسون:- المسالة السودانية، مطبعة المستقبل، الاسكندرية، ١٩٣٦، ٦-٨.

عبدالقادر حلمى باشا لأحقاد شخصية، مستشهدًا بالانتصارات التى حققها عبدالقادر حلمى فى الشرق، وما انتشر حوله من شائعات برغبته فى الاستقلال بالسودان لنفسه. وعلى هذا فقد أدان فوزى الخطأ الذى ارتكبه الخديو بسحبه عبدالقادر حلمى، متهما الحكمدار الجديد محمد علاء الدين، الذى كان معروفا بشرب المسكرات بالفساد، وانه حصلت فى عهده حملة هكس باشا، ذاكرًا بانه شرب زجاجة كنياك قبل مقتله بعشرين دقيقة(١).واتفق سلاطين باشا فى كتابه «السيف والنار فى السودان» مع رؤية ابراهيم فوزى حول إجراءات عبدالقادر لمواجهة الثورة المهدية، حيث يقول «لو صادفت نصائح عبدالقادر باشا أذانًا مصغية لجرت الأمور فى السودان فى غير المجرى الذى جرت عليه، ولكانت النتائج غير هذه النتائج السيئة»(٢). وبعد أن يتحدث عن سقوط الأبيض راح يقدح فى سلوكيات المهدى، متحدثا عن إصداره لمنشور ينص على أخذ كل حسناء من زوجها، وقيامه بقتل إمرأة بالحجارة رجما، لمجرد أن أحد أصحابه أبلغه بأنها زانية، ولأن أصحابه لا يكذبون، فحكم هذا الحكم. ولم يكن فوزى متجنيًا على المهدى فى رصد تلك السلوكيات، بل تلاقت روايته فى كثير منها مع رواية سلاطين باشا. وفى إعلانه عن خطأ تعيين محمد علاء الدين باشا مكان عبدالقادر كحكمدار، وفصل النظارة عن الحكمدارية(٣). فى حين تقول مراجع اخرى بانه تم تعيين سليمان نيازى باشا اولا، حيث كان علاء باشا مساعدا لهكس باشا، فى حين استدعى سليمان نيازى ليصبح هكس باشا قائدا عاما للحملة، فاعلن علاء باشا نفسه حاكما عاما بنفسه(٤). بل إن حديثه على إدعاء المهدى بأن اسمه وجد منقوشًا على الأشجار وبيض الدجاج، وأنه أخبر أتباعه بأن أصحابه

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١١٩-١٢٨، ١٣٠- ١٣٥. وانظر أيضا، سلاطين باشا: المرجع السابق، متفرقات.

(٢) عمر طوسون: المسالة السودانية، الاسكندرية - مطبعة المستقبل ١٩٣٦، ٢٦.

(٣) ابراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٣٥-١٤٦.

(٤) عمر طوسون:- المرجع السابق، ٣٢-٤٠.

أفضل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، لانهم يحاربون النيران ويخوضون بين القنابل والرصاص، فى حين حارب أصحاب النبى بالسيوف والرماح، وتعليقه «ولا يخفى ما فى ذلك من الكذب عمدا على الله ورسوله»، ينم على إدراكه المبكر لعملية التضليل التى يمارسها المهدى. فإضافته على لسان المهدى «بأن خلفاءه أفضل من الأنبياء، وانه يتواصل مع النبى ليخبره بالهزائم التى ستلحق بالترك»، يدلل على متابعة دقيقة للرجل وأفكاره والقدح فيها. بل إن ذكره بان عدد المصريين فى الخرطوم عند سقوطها كان يتجاو ٢٠٠ ألف نسمة، متحدثا عن سقوط دارفور ومصادرة أموال المصري هناك، وإرسال المصريات من هناك كمحظيات للمهدى[١]، يؤجج الأحقاد ضد الرجل وأتباعه، ويصب مباشرة فى سخط الرأى العام على المهدية ورجالاتها.

وتتكامل روايات إبراهيم فوزى مع روايات سلاطين باشا فى مناطق عدة، لتؤكد لنا الصورة العامة وتبرزها. فمثلا يحكى لنا إبراهيم فوزى عن حصار الخرطوم قبل سقوطها من الداخل، فيأتي سلاطين ليكمل لنا الصورة من خارج الخرطوم. وأتفقا حول سقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥. وأيضًا فى التعذيب، وفى توزيع النساء على المهدى وأتباعه. وفى المجاعات التى حصلت فى عهد التعايشى[٢]. فعلى لسان سلاطين باشا كان عدد المصريين كثير جدا فى السودان، وكان حسن حسين أميرا عليهم. وأيضا اتفق معه فى كراهية فصيل من أقارب التعايشى لبروزه، وفى انقطاع الصلة بعد احتلال بربر بين مصر والسودان، وان إذاعة منشور إخلاء السودان قد قلبت الحالة وسببت احتلال بربر[٣]. وعلى هذا فإن الكتابات السودانية التى اعتبرت بأن كتابات الأوروبيين، كسلاطين وونجت، ذات أهداف دعائية، وأنها

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٤٦،١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦.

(٢) سلاطين باشا: المرجع السابق، ١٥٢- ١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، ٢٠٠- ٢٠٠٥ وكذا انظر ابراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، ٣٩٦-٣٩٩.

(٣) سلاطين باشا: المرجع السابق، ١٢٦-١٢٨.

ألصقت بالمهدى والتعايشى كل النقائص، ووصفتهم بالتعصب والجهل والتعطش للدماء[١]، لم تكن سهامها بعيدة عن إبراهيم فوزى نفسه، وقد اشرنا لبعضها من قبل.

وفى إطار تذكير المصريين بهويتهم داخل سودان المهدى، ركز إبراهيم فوزى على مصطلح المصريين، فتكرر ذكر ضباط مصريين، وتجار مصريين، ونساء المصريين، ونصارى مصريين، وموظفين مصريين. وان كلمة ولد الريف،كان يطلقها السودانيون على المصريين. بل يورد لنا كثير من المآسي التى حدثت للمصريين بعد سقوط الخرطوم، فتحدث عن جنون إمرأة مصرية فقدت أولادها وأحفادها، وأنها كانت تحثوا التراب على وجهها. منتقلًا للحديث عن امرأة أحمد عبد الوهاب، وكيل الضبطية، حيث قتل زوجها وأخوتها الأربعة، فطلبت قتلها فحصلت عليه بعد أن أخذت سلاحًا هددت به فقتلوها على جرأتها. وراح بعدها يروى مأساة مقتل زوجة إبراهيم بك لبيب، حكمدار بوليس المدينة مع زوجها، لأنها احتضنته حينما هم الدراويش بقتله. فضلًا عن قتل٣٠٠ مصرية أخرى. ناهيك عن قتل عدد كبير من المصريين، كحسين المجدى، ناظر المدرسة الأميرية، الذى كتب رسالة، كشف فيها أباطيل المهدية، ففسق أحد رجالات المهدى بامرأته، وفض آخر بكارة ابنته. متعجبًا من عدم انتفاخ جثث القتلى المصريين، وعدم تغير لونها، حتى أمكن رؤية الشخص المقتول بعد بضعة شهور، بل كانت الطيور لا تأكلها، ولم يشاهد حولها شيء من الديدان أو الحشرات التى تنتاب الأجسام الميتة. متعجبًا من احتساب المهدى ذلك من كراماته. ثم راح يتحدث عن التمثيل بالجثث وعن مقتل العديد من العلماء لعدم الحاجة إليهم، فحسب زعمهم أن المهدى أصبح يتلقى الشريعة من النبى مباشرة[٢] واعتقد ان رؤية فوزى عن تعامل المهديين مع المرأة نقلتها كثير من الدراسات

---

(١) فيفيان أمينة ياجى: المرجع السابق، ٤٣.

(٢) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٦٠. ونظر ٢: ١٦ – ٢٤.

واستشهدت بها[١]. وعلى هذا فان اعتداء المهديين على أعراض النساء المصريات، قد شكل نقطة مفصلية فى تهييج المصريين ضد رجالات المهدية وكراهيتهم لها.

ومن الجدير بالذكر أن فوزى كشف لنا تحكم المهدى بالسودانيين من خلال إدراكه لمعرفتهم بأنفسهم. فقد اشتبك كتابه بشكل مباشر مع موضوعات دينية واجتماعية مرتبطة بالمعرفة المركزية. فشرح سمات أفكار المهدية وخصائصها، فعكس إدراكه بالبنية الفكرية التى ينطلق منها المهدى، فراح يدعو لهدمها. غير أن طريقة معالجة المهدى لها أوضحت للمجتمع المحلى بأن ما يجرى ما هو إلا أدوات للنظام لمحاربة الوعى والاستقلال الذى ينشدونه. فكشف فوزى بأن المناخ المعرفى السائد فى السودان هو الذى كان متورطا فى انتشار الأفكار المهدوية واتساعها. فنقل عن المهدى إلغاءه لكل الأحكام والشرائع التى سبقت ظهوره، وسمى اهلها «باهل الفترة»، فعلى سبيل المثال ألغى الطلقة الثالثة ولم يعترف بأي طلقة حدثت قبل ظهوره. ولعل المناقشات التى رتبتها الإدارة المصرية، وأدارها الشيخ محمد الأمين البصير وغيره مع المهدى، أثبتت دور العلماء فى تفنيد ضلالات الرجل وحججه. وفى هذا الإطار استدعت الدولة المصرية غردون مرة أخرى للسودان سنة١٨٨٤، فأعاد معه إبراهيم فوزى بكامل رتبه وألقابه[٢]. وفى هذا الإطار رصد لنا وصول غردون الى الخرطوم وفرح المصريين بوصوله، وخطابات المهدى الثلاثة لغردون، غير أن حديثه عن تركز مهمة غردون فى وضع البلاد فى مخالب الفوضى، وأن يقضى على نفوذ مصر فى تلك الأنحاء، وأن يخلى السودان إخلاء تاما عن كل المصريين، يصب فى رفضه التام لمهمة الرجل رغم صداقتهما. ذاكرًا بأن عدم مساعدة انجلترا لغردون وعدم الالتفات لطلباته، يؤكد الخذلان البريطانى للرجل. متحدثًا عن حصار الخرطوم وإصابة إبراهيم باشا برصاصة وملازمته للفراش ثلاثة شهور، وعن سقوط بربر وانقطاع

---

(١) LAHOUCINE OUZGNE, ROBERT MORRELL: Africa masculinties.. Men in Africa from the late Nineteenth Century to the Present, New York, 2005, P.162.

(٢) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٥٩-٢٦٣، ٣٢٩.

الصلة مع مصر. وصيانة حاكمها لعرض المصريات فذكرها من حسناته، لكنه فى موضع آخر ذكر تعذيبه للمصريين(١).

وبالنسبة لظاهرة تفشى الجدرى بين الدراويش، فيعترف فوزى «بأن غردون قد أمر بوضع الجدرى فى جوف الكلل، فإذا وقعت وسط الدرايش بغير أن تنفجر، فسيأخذونها، ويجدون الماء ويقولون أنها من كرامات المهدى ويتبركون بالمادة الجدرية، ويمسحون بها وجوههم، ففشا فيهم الجدرى، وبلغ عدد الوفيات منهم ٥٠ كل يوم. فنقلت الأخبار للمهدى فبنى عليها ما بنى، وزعم أن النبى صلى الله عله وسلم أخبره بأن الكلل تحول إلى ماء، كرامة له، فاعتقد كثير من البسطاء بأن هذه المكيدة كرامة ثابتة للمهدى»(٢). غير أن إلقاء البعض التهمة على إبراهيم فوزى نفسه، وبأنه هو الذى قام بعملية النقل لمادة الجدرى من القاهرة للخرطوم، وأنه هو كان يقوم بإطلاقها على المهديين(٣)، لم يثبت صحتها.

على أية حال، أوضح لنا فوزى التناقض ما بين الأفكار الدينية لدى المهدى ورجاله، وشهواتهم الجنسية. فتحدث عن أشكال الممارسات الجنسية وإساءتهم لاستخدام المتع فى غير محلها. مشيرًا فى الجز الثانى عن قيام الدولة المهدية وعن عذابات الناس عند سقوط الخرطوم، وعن مأساة المصريين بهذا الدخول، فتحدث عن إرسال ألف عذراء من بنات أعيان المصريين، فاختار المهدى منهن ٣٠ فتاة من ذوات الحسن والجمال، مرسلًا عددًا عظيمًا لخلفائه الأربعة. وهذا الألف من جملة ٣٥ ألف فتاة أبيحت أعراضها. وانطلق بعدها يحكى لنا طرفًا من سيرة المهدى ووفاته وحقيقة طعامه، وانه لا يترك من الخروف إلا عظامه، وأنه كان يضع رطلًا من السمن مع رطل من العسل مخلوطا باللبن فى طعام الإفطار، ومع ذلك يظهر للناس الزهد.

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية ٢٦٧-٢٩٥، ٣١٢-٣١٦، ٣١٨-٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٣.

(٢) نفسه، ٣٤٤.

(٣) خالدة الشيخ: المرجع السابق.

وهنا يحدثنا فوزى عن قيامه بتسليم نفسه، فتم سجنه، وجردوه من أمواله. وأنه أضطر لاستخدام الحيلة والخداع عند مقابلته للمهدى وعبدالله التعايشى، فتلاعب بالمفردات أيما تلاعب(١).غير انه تأسف لأن الحكومة البريطانية سعت لفك أسر أبنائها من قبضة المهدى، أما مصر فلم تسع لذلك.

ويعج الكتاب بالإشارات بأن أصابع المصريين كانت واضحة خلال فترة سيطرة المهديين على السودان. ومن ينظر لحديث فوزى فى الجزء الثانى عن الثورة على التعايشى، وسجنه لأولاد المهدى، وتعامله مع نساء المهدى، وعن حال السودان فى عهده، وتبدل المهدية تبدلًا عظيمًا، وأن الفشل توالى عليها فى أماكن عدة، ولم تقم لها قائمة منذ سنة ١٨٨٩ بعد انتصاره على أبو جميزة فى دافور، ونجاشى الحبشة فى القلابات، يتعرف على حالة السودان المذرية فى عهد التعايشى. بل إن قوله «بأن زيادة التعايشى لعدد حراسه لـ ٣٠ ألف، فإذا خرج من المسجد أحاط به ٢٠ ألفًا»، يدلل على الشكوك التى دخلت على الرجل فى المحيطين به. فقد انغمس فى الملذات وضخم جسمه، وأكثر من نفى الأعيان وقتلهم. الى هنا لم يكن حديث فوزى واضحا عن أثر المصريين، لكنه ظهر فى كل ما سبق، فى حديثه عن أمر التعايشى بإبطال القهاوى التى يديرها المصريون، فقد اعتقد التعايشى ورجاله بأن المصريين فتحوا تلك المقاهى كمنتديات عامة للنقاش فى مسائل تمس المهدية، وفى خلع طاعة التعايشى. بل كانوا يطلقون عليه اسم رمزى هو «الزر»، فيقولون ماذا فعل الزر؟ فيقولون كيت وكيت، فقام بإبطال القهاوى تمامًا(٢). واعتقد أن فوزى كان أحد هؤلاء الذين ينشرون الثورة من تحت السطح، فالقهوة التى فتحها فى ام درمان، والأخرى التى فتحها فى الخرطوم، وإغلاق السلطات لهما، لم تكن ببعيده عما يتحدث عنه. فقد اتهم صراحة بأنه يقود المصريين للثورة على المهديين.

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، :2 ٢-١٦.
(٢) نفسه، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٠٨- ٣١٠، ٣٤٢، ٣٤٣.

وحديث فوزى عن المشاهد الختامية يبشر اقتراب سنوات الحسم فى أمر المهدية فى السودان. فقد تحدث عن سلاطين وهروبه من أسر التعايشى، وكيف أن ونجت وكتشنر قد اعتمدا عليه فى جمع المعلومات التى بنى عليها جهاز المخابرات خطته فى استرداد السودان. ثم تحدث عن سجنه هو نفسه نتيجة هروب سلاطين، وكيف قضى ٥ سنوات فى سجن ام درمان حتى أطلقه كتشنر سنة ١٨٩٨. وفى هذا السجن اخبرنا عن عدد كبير من المتنبئين ومدعى المهدية والنبوة، وعن اعتقال ابنه محمد فوزى وختان المسيحين ومطالبتهم بتعدد الزوجات. متحدثا عن عربة امتيسة التى أخذها التعايشى وهى فى طريقها إليه، وكيف كانت هذه العربة تستغل فى جلب نساء للتعايشى ليأخذ منهن وطره. خاتما حديثه عن ارتعاد النساء من ذكر اسم يونس ولد الدكيم. منهيا الجزء الثانى معلنا بأنه سيبدأ الجزء الثالث بالحديث عن حملة دنقلة[١]. غير أن هذا الجزء لم يبدأه أصلًا، لأنه لم يكن مطلوبًا منه الخوض فيما حدث خلال حرب الاسترداد. فكان مطلوبا من كتابه أن يوضع أمام السودانيين والمصريين، ليذكرهم فقط بهذا الماضى الجميل قبل وصول المهديين للحكم، وعن المَاسي والآلام التى لحقت بهم بعدها، ويكمل الصورة التى رسمها سجناء المهدى الأجانب.

المحور الخامس: قضايا النيل فى منظور إبراهيم فوزى

يعتبر حديث إبراهيم فوزى عن النيل حديث الثقة، فالدولة المصرية القوية التى استطاعت السيطرة على منابعه لم تكن مشغوله حينها بالهواجس القديمة المحيطة بمياهه. ولم تشغلها مسائل المياه أبدًا، بل شغلها أمر الحشائش والنباتات التى تعوق حركة الجيش المصرى المنتقل للسيطرة على منابعه الاستوائية. مهتمًة بالأوامر الخديوية التى تتعلق بضرورة السيطرة على بخيرة فيكتوريا، ووضع بلاد اللوجاندة تحت الحماية المصرية. فملامح الهوان والضعف التى نراها اليوم بشأن المياه، لم تكن موجودة فى

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية ، ٣١١- ٣٢٠، ٣٢٥-٣٢٧، ٣٤٨-٣٦٣.

مفردات العصر الإمبراطورى الذى يؤرخ له فوزى. ولمزيد من فهم هذا المحور فهمًا جيدًا سنقسمه إلى جزءين:

الجزء الأول، وهو خاص بالمنابع الحبشية.

اعتقد أن الغائب الحاضر فى مذكرات إبراهيم فوزى هو الحبشة. ويمكن قبول هذا الغياب لانشغاله خلال فترة حروب مصر مع الحبشة بمهام أخرى فى المديرية الاستوائية. فحين صاحب غردون فى عودته كحكمدار للسوان كانت الحروب المصرية الحبشة قد انتهت. لكنه حين تحدث عن استقالة غردون سنة ١٨٧٩ من حكمدراية السودان ذكر بأن أحد أسبابها الرئيسية هو الخلاف بين مصر والحبشة حول مسالة تحديد التخوم، وعدم تعامله بطريقه ودية أو مخابراتية سليمة مع هذا الملف. ورغم أن فوزى لم يتحدث عن علاقات مصر بالحبشة، إلا أنه تحدث عنه فى صفحات وعناوين عديدة، أهمها حروب المهدية مع الأحباش، وفتح قندر بالحبشة، ومقتل نجاشى الحبشة فى القلابات[1]. لكن السؤال الذى يطرح نفسه، هو لماذا لم يسجل شيئًا عن العلاقات المصرية الحبشية، رغم أنه أرخ لاحداث كثيرة لم يشهدها بنفسه؟ الإجابة المنطقية هو أن الرجل بدأ بتاريخ مصر الامبراطورى الكبير فى المنابع الاستوائية، ولم يشأ أن يضف صفحة الانتكاسات الحبشية لتلك الفترة الذهبية من تاريخ مصر. وفيما يتعلق بالفترة التالية لخروج مصر من السودان انشغل بتسجيل ماسيه وماسي الشعب المصرى والسودانى هناك بسبب المهديين، ليضعه أمام الطرفين ليكون شاهدا على جرائم المهدية وانتهاكاتها.

الجزء الثانى، وهو خاص بالمنابع الاستوائية.

فحينما بدأت مصر فى التوسع باتجاه منابع النيل، وأولت تلك المهمة لصمويل بيكر، فان حدودها قد اتسعت جنوبا أكثر فأكثر. وفى هذا الإطار توفرت الفرصة

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، ١: ٤٨ و، دار الكتب والوثائق المصرية، ٢: ١١٧-١٣١.

لتحديث تلك البلدان وتقدمها، وأتيحت الفرصة لدراستها دراسة علمية وجغرافية، فانتشر الوعى بتلك المناطق. وتوفرت لمصر لأول مرة معلومات متكاملة عن منابع النيل وشعوبه. وهنا يقدم لنا إبراهيم فوزى تفاصيل العصر الذهبى للإمبراطورية المصرية فى وادى النيل، وكيف استفادت هذه الإمبراطورية من أحسن الموظفين الأجانب فى خدمة أهدافها. فقدم لنا وصفا للخريطة الجغرافية المصرية فى منابع النيل، وكيف تسابق السكان المحليون على الدخول فيها والخضوع لها. فقدم لنا القرن ١٩ قرنا مصريًا بامتياز. فأدخلوا تحت جناحهم كل من يحتاج إلى رعاية وحماية وتعليم، وكل من يطلب تنويرًا وتحديثًا وحضارة. بل قدم لنا ابراهيم فوزى صورة مصر فى ابهى تجلياتها فى تعاملها مع الهويات الجماعية المتعددة لشعوب منابع النيل، مقدمًا صورة نحتاجها فى زمننا المعاصر. فأبرز القدرة المصرية على التعامل مع هويات تستند على عوامل لغوية وثقافية ودينية، وأخرى تستند على عوامل عرقية وجغرافية، بقدرة فائقة على تمييز الحدود الفاصلة بين الجماعات المختلفة. لكنه تميز عن الكتاب الأجانب بعدم وجود نظرة استعلائية فى كتاباته. فلم يصف شعوب النيل بالتخلف أو بأنهم أنصاف أطفال أو أنصاف بشر. ومن ثم فإن قضية التحديث وإدخال المدنية فى حوض النيل، كانت هى الهدف الرئيسى للإمبراطورية المصرية. حيث تحدث عن حركة التأثير الثقافى للمصريين فى الطعام والملبس والمسكن وفى زراعة الحدائق. وأعطانا صورة عامة لشبكة القوة العسكرية التى تعتمد عليها الامبرطورية المصرية فى حوض النيل، لكنه لم يتحدث عن كراهية المصريين لشعوب المنطقة، أو احتقارهم لتلك الشعوب. مشيرًا للدور الذى لعبته ترسانة الخرطوم المصرية فى توفير الأدوات اللازمة لاختراق منابع النيل. وهو الأمر الذى أتاح لها إقامة عشر محطات فى أوغندا. ولعل حديثه عن أعمال العمران والتحديث المصرى فى السودان وغيرها، وكيف أدخلت السكك الحديدية والتلغراف، لم يجعله يصطحب الواقع الاجتماعى فى السودان فحسب، بل يركز على بعض جوانب المهمشين وعلى القيادات والنخب فى كافة الأنحاء. واشاراته لاستمرار القوة المصري فى لحظات ضعفها، وأنها لم تنقطع حتى

بعد خروج مصر من السودان، وأنها ظلت حاضرة طيلة فترة حكم المهدية، يؤكده حديثه عن حضور مخابرات الجيش المصرى فى السودان منذ سنة ١٨٩٢ وحتى حرب الاسترداد، وعن وجود ٥٩ تقريرًا معلوماتيًا عن السودان لدى المخابرات المصرية، جمعها الضباط البريطانيون من التجار والجواسيس المتنقلين بين القاهرة والخرطوم(١).

وبخصوص معاملة الاهالى، فإننا لا نستغرب إشارة إحدى الوثائق المصرية للأوامر الخديوية الصادرة لغردون بضرورة معاملة الأهالى برفق ولين الجانب والتأليف والترغيب وتأهيلهم للعمارة وإدخالهم فى سلك الانسانية وإراحتهم(٢). فهذا ما حدثنا عنه إبراهيم فوزى تطبيقًا عمليًا، فنراه يتحدث عن لين غردون مع الاهالى وحسن إدارته لهم، وعن بناءه للمستشفيات. وفى نفس الوقت عن حزمه مع الخارجين عن سلطته، حيث كانت موازيين القوة فى صالح القوات المصرية، فى حين كان الأهالى يحاربون بالنبال والنشاب. ولعل حديثه عن ردود فعل غردون على تمثيل الأهالى بجثة عبدالعزيز لينان، وأنهم صلبوا وقذفوه بحوالى ٥٠٠ نشابة وسهم، يتبين من قدرته على السيطرة على الأمور بكل النواحى. وحين تحدث عن أكلى لحوم البشر فى بلاد النمانم المتصلة ببحر الغزال، ذكر بأنها تتركز فى قبيلتان فقط ـ ولا تفعلانه دائما، وإنما يحدث حين يتفشى مرض ميئوس منه فى قبيلة ما، فكانوا يسلمون مريضهم للقبيلة الأخرى لتأكله، كما تفعل هى الأخرى بمريضها. مستنتجًا بان أكل لحوم البشر ليست غذاء، وإنما لبيان معزة الموت وأنها أسمى من دفن الانسان فى قبر أو إحراقه بالنار(٣).

ولم يقتصر حديث فوزى عن القوة العسكرية فى منابع النيل وملاحها فقط، بل تحدث عن الشركات المصرية وامتدادها حتى بحيرة فيكتوريا. بل انظر الى حديثه عن

---

(١) جوهر موسى النهار المهيدات: بريطانيا والحركة المهدية فى السودان ١٨٨١-١٨٩٩، رسالة ماجستير، كلية الاداب،جامعة اليرموك، الاردن، ٢٠٠٣، ٤.

(٢) الوثيقة ٢٧: توجيهات خديوية لغردون بخصوص ادارة الاستوائية، جميل عبيد: المرجع السابق، ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٠-١٤، ٣٢، ٣٣.

تعجب سكان البحيرات الاستوائية من قدرة الحكومة المصرية على ترويض الأفيال التى جاءت بها من الهند. فقد أطلقوا على حاكم المديريات الاستوائية إبراهيم فوزى نفسه، والذي قضى الـ ٤٠ يومًا الأولى من حكمه خارج عاصمته اللادو يزور كل المديريات، بصاحب الأفيال[١]. وعلى هذا يمكن القول بنتائج ثلاث: أولها، أن أول مفردات للتحديث فى حوض النيل هى التى ادخلها المصريون. ثانيها، أن سيرة المصريين الحسنة فى وادى النيل هى التى جعلت غالبية شعوبه تتمنى أن تدخل فى مظلة التاج المصرى فيما بعد. ثالثها، أن التركيز على مفردات القوة والتاريخ الامبراطورى لمصر فى حوض النيل، يذكر أشقاء النيل، بأن تلك المفردات لم يحدث أن أساء المصريون استغلالها يوما ما طيلة تاريخ حكمهم لتلك المناطق.

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ٣٢، ٣٦، ٤٣.

الخاتمة

* أوضحت الدراسة بأن إسهامات إبراهيم فوزى فى الكتابة التاريخية قدمت لنا نمطا جديدا من الكتابات التاريخية التى تهتم بتاريخ مصر خارج حدودها. فرصدت تاريخًا إمبراطوريا فى حوض النيل، شارك هو بنفسه فى صنع جوانب منه. فبينت لنا بأن الهوية الوطنية المصرية لم تتشكل على أيدى الحكام ورؤساء الحكومات والقادة، بل تشكلت على أيدى هؤلاء الفاعلين الحقيقيين من المصريين من الجنود والتجار والمدرسين والرجال والنساء والعمال وغيرهم، ممن صنعوا بعرقهم وكفاحهم تاريخ مصر الحقيقى.

* بينت الدراسة أن كتابات إبراهيم فوزى قد سدت فراغا تاريخيا يتعلق بتاريخ مصر الخارجى، فكانت توراخ معاصريه من المؤرخين المصريين، تدور حول الشأن المحلى وقضايا الحكم وشئون الأراضى والقوانين والتعليم وغيرها. ومن ثم فان كتابه يعد رصدًا متفردًا لأول محاولة لتوحيد دول حوض النيل تحت الحكم المصرى فى القرن ١٩، وأول محاولة لدمج شعوب النيل فى بوتقة واحدة لصهرهم. وعلى هذا يعد الرجل أول من وضع أيدينا على وجود إستراتيجية مصرية فى حوض النيل فى النصف الثانى من القرن ١٩. ولهذا فإن قيمة إسهامه الحقيقي تمثل فى فهمه للصلات بين التاريخ المحلى والوطنى والاقليمى والدولى، وفى فهمه لتعقيدات الحياة النيلية ومجتمعاتها المتنوعة والصلات بينها. وأيضًا فى المشاهد الثلاث التى تفرد برصدها، وأولها المشهد الاستوائى فى منابع النيل، والثانى، الوضع داخل الخرطوم لحظة سقوطها. والثالث، أحوال المصريين الموجودين فى السودان فترة حكم المهدية، وكيف كانوا يخيفون السلطة القائمة.

* لم تكتف الدراسة بالتعريف بالكتاب وموضوعاته، بل اشتبكت مع أفكاره ومعلوماته اشتباكًا حقيقيًا، فطرحت الرؤى المقابلة، ووسعت من مساحة الرؤية المتاحة، وعرضت ما وراء الحكاية. وبينت بأن أهم هدف لنص فوزى هو تحميله

المهدى ورجاله لكل الأخطاء التى وقعت فى السودان وجواره الإقليمى، وأنهم كانوا سببًا رئيسيًا فى حرمان السودانيين من التقدم الذى كان قائمًا، بتوفيرهم الفرصة للتدخل الأجنبى فى كل الدويلات النيلية فيما بعد.